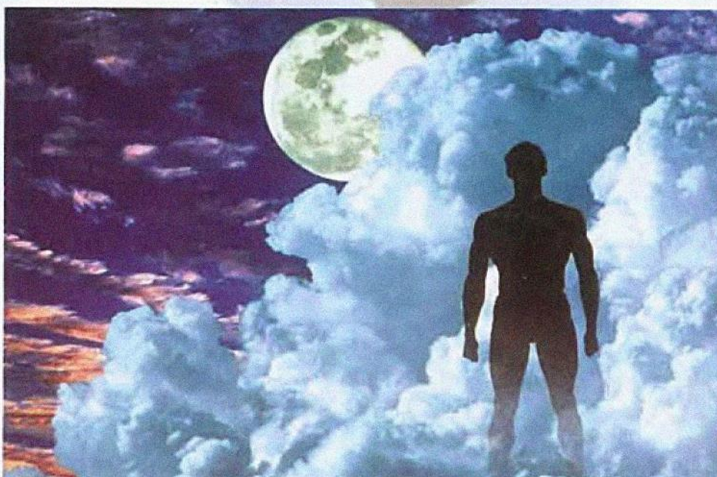
ميغيل انجيل استورياس

# الهاخاديتو

رامة الشحاذ



الأعمال الكاملة
المترجمات ٣

د. سامي الجندي

• ميغيل انجيل استورياس
• الهاخاديتو «رامة الشحاذ»
• ترجمة: د. سامي الجندي

• الطبعة الثالثة 2008
• موافقة وزارة الإعلام:
رقم 73480 تاريخ 2002/12/29
• دار الجندي للنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق
هاتف: 3317019 ص.ب:33418

ميغيل انجيل استورياس

# الهاخاديتو
# «رامة الشحاذ»

رواية

ترجمة: د. سامي الجندي

# الجزء الأول

# 1

كان يجري عصير قصب السكر عند ملتقى الشفتين؛ شاربين صينيان مذهبان، يدغدغان، حلو لحسهما بلسانه لسان قط. كان عليه أن يحمي نفسه بإيماءات واسعة، أن يحمي شاربيه. طنين الحشرَة الناعم عند الهجوم؛ طنين الحشرة القاسي بعد أن هجمت ثم سقوط ينقطع فيحول طيراناً. حين كانت تهاجم الحشرة في لفتة محسوبة، دورة إثر دورة، كانت تغدو حركة اليد تحيّة بطيئة. كانت تنتزعه الذبابات الكبيرة الخضر، الثقيلة، الملمعة من خدر غدوّ ورواح الذبابات الصغير، فيما يمصّ دون ونىً لقصبته، ويمضغ ثم يمضغ قلب اللب الأبيض من بين ألياف القشر القاطعة التي ما انشقت إلا لماماً وظلت ثارّة.

والبيت كان يحوي، في طرف منعزل، آثار رواق منسي لا يوصل إلى أي باب أو شباك؛ كان يستند فحسب إلى حائط أملس يفصله عن بعض غرف المهملات، وإفريزٍ مائل قائم على ثلاثة أعمدة من خشب قواعدها حجر، فيغدو وكأنه نصف سقف، سقف ما له غير منحدر واحد للبكاء. كان يسحّ الماء، إذا أمطرت السماء، من جهة وحيدة. هنالك سقوف بمنحدرين. بيوت تبكي بعينين. الرواق الصغير، رواقه، كان يبكي بعين واحدة فحسب، قطرة قطرة، في البدء، ثم تنساب دموع القرميد جداول دموع رقيقة تذهب بها أنهار أكبر إلى بحر الظلمات أو الهادئ. وفي هذا المستوى تبكي بيوت المائين للبحرين، عين لكل بحر.

حائط أملس، وسقف ذو منحدر واحد وأرض من آجرّ مربع وهناك،

وكأنها صحن الدار، العشب الأخضر والعيص من كل أنواع النباتات، وفي ناحية أبعد نفس العيص، وفيما هو أبعد أيضاً، حتى الأفق.

إن أحداً ما كان ليهتم بهذا الرواق الصغير. وجود منسي. والريح القزم تكنّسها. والمطر المائل يغسلها. وذات يوم اكتشف براز دجاجة على الأرض. وجحظ من دهشة، لا بعينيه، بل بؤبؤيه، حتى ليكاد يسقطهما.

دجاج؟ في أية ساعة يمكن أن تأتي؟ ومن أين؟ والأخمام[1] في الناحية الثانية من البيت. لابدّ أنها طارت حتى هنا. لكنه كان يسمعها وهي تمرّ فوق صحون الدور، نصف طائرة، نصف متجرجرة.

في نفس هذا الرواق، رواقه اكتشف ذات صباح قشرة أفوكاتو[2]. كوب صغير. لم يعلق عليها أهمية. وتصرف وكأنه لم يرها. إنه لم يرها هو، لكن أحداً ما، من هذا الكوب القشر كان ينظر إليه. بؤبؤ ماء لامعة في القعر المحبحب بلون مسود. ضربه بقدمه وبقي سيد الرواق الذي تهيمن عليه رائحة قوية، رائحة الناس، ناس كثيرين، ناس يتعرقون، ناس أمزجتهم قوية، ناس لا يغتسلون ولقد مشوا طويلاً.

وذات يوم ظهر خط فحم أسود على الجدار الذي كان من قبل أبيض، وكأنه صدع هزّة أرضية. شمس الظهر مؤلمة ومضيئة. وتبدّى هدهد وتمايل كعامة[3] لا تستقر على حافة الرواق؛ ثم حط فجأة على السقف وترك في الفضاء سحر جناح.

من خربش على الحائط؟ من جاء هذه الليلة إلى الرواق؟ البارحة، ما كان هذا الشبه شق موجوداً. من؟ لكن من؟

كان الشتاء قد جاء. مستحيل مع هذا القلق من زيارات الدجاج الليلية

---

(1) جمع خم: قن الدجاج.
(2) Avocado: نبات استوائي ذو ثمر شبيه بالأجاص.
(3) ما يعوم به الناس على البحر بخاصة بعد غرق المركب.

ومن الأشباح التي تأكل ثمار الأفوكاتو، مستحيل أن يدع رواقه الصغير لهواه كل الشتاء.

سوف يجيء كي يرى المطر هنا، حيث يشرب العشب الماء فلا يبيح له أن يرنّ كما في صحون الدار المبلطة. يشربه ببساطة. كما لو أنه انتظره وفمه مفتوح.

وأخذ يمشي بخطا واسعة. كان الرواق المقفر كجدعة ذراع بيت قديم.

واحد، اثنان، ثلاثة... كم صفاً من الآجر المربع؟ ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة... ومن ناحية الحائط الأخرى، في الغرف المظلمة، عُدد حيوانات الجر وبراميل عالية ضيقة ملأى بقطع عملةَ صدئة، رائحتها كريهة، رطبة، مطمورة في مزيج من الرماد والورق المحروق.

كان يحمل دائماً بعضاً من هذه القطع في جيوبه. ثقل المعدن اللذيذ الذي يرن في جوف القماش. لم تكن القطع جميعاً متشابهة. أكبرها كان بلون الذهب والدم، يبدي من إحدى جهتيه عمودين جدّ صغيرين في أمائر ترمز لأمواج، وفي الأعلى، في عمقه، الشمس تنبثق من البحر؛ وفي الجهة الثانية امرأة معصوبة العينين، تحمل غصناً في اليد اليسرى، وفي اليمنى ميزاناً. وبعض القطع الأقل وزناً، والبالغة بالرقة، من معدن أبيض، تحمل الرقم 9 وربما 6 حسب الاتجاه، وعلى الجهة الثانية يد مفتوحة. وأغربها قطع جدّ صغيرة، تدعى كوارتيلو، مثقوبة من منتصفها.

كانت القطع، على اقتراب الشتاء، تنضح بعفن المعدن، رطبة ولزجة؛ كانت ضائعة في رماد البراميل التي كانت تندلق على الأرض كلما أولج يده، عدوانية، تبحث عن قطع أخرى في العمق. شعر ذات مرة أن الرماد يضغط على يده. فسحب في عنف ذراعه وقد ارتاب إن كان الرماد ـ أصابعه كانت ترتجف رعباً ـ تشبث حقاً بيده. ولقد جفّ فمه. ولولا قليل ما أسعفه الوقت بالفرار، وقد تلفعت يده برماد عظم. صياح... نداء... صقالات تتقصّف...

ألسنة نار تلتهم كل شيء في سبيلها... ضربات فزّاعة عنيفة... وانفجارات قربينات[4] أبعد، تصاحبها رائحة قار نافذة، وبارود، وراتنج دماء مالح.

كان في رواقه الصغير. لا شيء حقيقياً من ذلك. خيال. أحلام. حكايات خادمات عجائز. كان في رواقه هو وقصبة حلوة، وشارباه من شراب يلتصقان بملتقى الشفتين، ويطير الذباب...

وإيماءة بطيئة كي يطردها...

وغزاه عصير القصب بإحساس عاشق، من ثمر ومن ملاك. كأنه يعزف على ناي من قصب حلو. لولا أن الصوت كان شراباً. سوف يأتي، بعد الآن، بمزماره كي يعزف هنا، كما يمتصّ القصب، ويحول الشرابَ عندها موسيقى. وتحط أصابعه، أظفار عنكبوت سريعة، على ثقوب المزمار، أو ترتفع عنها فتدع النغم يفلت أو تسدّ عليه الدرب. عسل آخر. عيد آخر. ويغدو الرواق، في زاويته، معتماً. ويبدو نغم المزمار، في القمة، بعيداً، ويحس هو بأنه بعيد في رواقه، بعيد، من دون ذباب، ولا شاربين من عصير قصب.

## 2

كان الزائرَ الصغير لا يعرف شيئاً كثيراً عن الرواق. وما كانت كثيرة الأشياء التي يمكن أن تُعرف عن هذا التجميع الحزين لمواد أتلفها العمر والأنواء. الحائط، والأعمدة، والأرض ذات المربعات، وسقف الماء الواحدة، وقرميد وضع على هيكل من قصب جفّ ربط إلى جذوع عوارض خشنة بمعترشات غبراء حائلة إلى سواد. نعم كان يعرف أشياء قليلة؛ لكنه كان دائماً كانتظار غامض. داعب الحائط بيده. قبّل العمود. جلس على حافة الرواق، وقد غارت قدماه في العشب.

(4) نوع من البنادق القديمة.

كم من الزمن بقي هناك؟

وخرج دون أن يلتفت وهو يربّت على طرف بنطاله المغطى بالرمل.

الرواق الصغير الصغير. الحائط. السقف. الأعمدة. العشب. الرواق الصغير. مستحيل عليه أن يرفع كتفيه كي يقول: ما يعنيني. ذهب وهو يصفر. أبناء الريف يصفرون كالطيور. غير أن الطفل المهذب لا ينبغي له أن يصفر أو يقشر قصبة السكر بأسنانه، وأكثر من ذلك أن يمصمصها في ضجة ويبصق الألياف التي مضغ.

لم يذهب أبعد. كانت ذبابة خضراء تجدّ في صنع بعض الضوضاء فيما عمد، بذهابه، إلى ترك الرواق الصغير مدفوناً في الصمت والجمود. لم يرحل. بقي يترصد. وانحنى نصف وجهه وإحدى عَينيه في حذر كي يريا ما يفعل الرواق عندما لا يكون فيه. لكن شيئاً لم يحدث على صفحة الجدار الاسمنتية القذرة، ولا على قواعد الأعمدة، أو في حزم المعترشات التي تربط قصبات السقف إلى الصقالة، أو في خطوط الشمس بين القرميد الذي لم يحكم رصفه.

كان يحب الرواق أكان فيه أم خارجه فهو ملك شخصي له. عندما خرج من مخبئه دسّ الأشياء واحداً واحداً، وهو يسميها بصوت عال، كي يزداد امتلاكه لما كان يحسّ أنه له. كان استماعه لنفسه وهو يتكلم يمنحه إحساساً بأمن عظيم؛ وعانى شعوراً بالتفوق، وبعظمة تسميته العمود عموداً، والآجرّة آجرة والحائط حائطاً.

كان كبيراً جهده في الكلام وحيداً، والتحدث مع المواد الصمّاء التي لا حسّ فيها. لكن أية سلطة تكبح الكلمة!

ذباب وإيماء وكلمات وطرف الرواق الجامد، دائماً شبيه نفسه، لا يتبدل، ولا يهتزّ.

لو نقص عمود واحد، كان يتقوّض، وينقصف السقف المقهور كجناح دجاجة، ويقيء الجدار الجبس بلون قشر البيض، وتطير أرضه شظايا، سحقها سقوط العوارض. كان يكفي أن ينقص عمود فجأة.

وبقي يتأمل الرواق وهو يتخيّل ذلك. ولو أنه الآن لم يعد صديقه. حدّق إليه بعينين قاسيتين عن عمد. وأطبق قبضته وضرب أقرب عمود له. فعبر السقف الذي فوق رأسه صوت هزة أرضية مهدّدة. وضرب من جديد أقوى فأقوى. وفي كل مرة كان يتزايد اهتزاز الأرض. وابتسم في خبث لفكرة أن الرواق تبادر له أن الأرض حقاً تهتز.

وأخرجت الضربات من السقف، عناكب وفئراناً تجري من كل الجهات، وما لا يحصى من الصراصير من كل الأحجام، بل وحية صغيرة رآها بطرف عينه.

كيف؟ كل هذه الكائنات الحية في شقفة هذا الرواق الذي يعتبر أنه ساكنه الوحيد؟

لقد أخرجت الهزة الأرضية الكاذبة عائلات كاملة من الصراصير، والعناكب والفئران. كل هذه العيون... لا عيناه وحدها، كل نقط الماء الحية هذه، هذه النقط المنيرة من ماء ذكية! لم يكن الوحيد الذي يتحرك في الرواق. كانت تندفع العناكب في لقطات غرزات كبيرة سريعة، وتتردد الصراصير غبية، ولا تحدث الفئران غير صوت فرار مكتوم! وهو الذي كان يحسب نفسه وحيداً، سيد الرواق وحده!

وقطعت الصراصير هربها، فحكت جناحاً بآخر، كي تدفع الخوف. وكان يركض عنكبوت بلون الصنوبر على طول الجدار كيدٍ تقيسه. وخيشوم فأر صغير. عقرب...!

همّ به فسحقه بقدمه، غريزياً. كل نزاع الشيء الحي، اللدن. والحق أن الحيوانات لم تكن من الرواق، بل من الجوار، من الحظيرة التي تخزن فيها براميل الرماد، والسرج، وعُدد حيوانات الفلاحة. وكانت تحتفظ السرج والعدد، في أشكالها كجسور يابانية صغيرة، بحركة الحيوانات الخفيفة، السريعة. هنالك مطايا تجري كأنهار في خببها، وأخرى كأنهار في سيرها.

ظل جامداً، مصاص قصب حلو لا يروى، صانع هزّات أرضية صغيرة، سيد رواق تسكنه، كالبيوت، كائنات عديدة لا ترى، وكنز قطع عملة لوّثها الرماد. وعاد الكل من الصراصير، للعناكب، للفئران، إلى عالم اللامرئي المظلم، إلى مملكة العتمة، والعفن وغبار الخشب المنخور. حيوانات لعابها، وجلدها من ظلمات، أم أربع وأربعين بلون الورق الجاف، وجداجد ضامرة عيونها جاحظة، وديدان عمياء، وعظّايات صغيرة. لم يحدث شيء إلا الضربات على العمود. آه بلى! موت العقرب المزركش الذي سحقه بقدمه.

## 3

في نور الفجر هذا العكر، من قمر وشمس، انحنى كي ينظر، وراء شباك الصيد الممدودة في الفناء الكبير، إلى أولئك الرجال الجافين، وقد غطّاهم الوسخ، وهم أشبه بجذور شجرة المانجا، وقد ارتدوا قبعات قش واسعة الحواف مصفرتها. أخذ النهار يتبدى. والرجال يعدون أمرهم كي ينزلوا للصيد في بحيرة، إذا رأيتها من هنا، ظهرت كأنها رامة قذرة. ومن أجل ذلك دعوها رامة الشحاذ[5].

ما كانت تعرف عيناه عينا الطفل وقد خدشتهما اليقظة المبكرة أين تحطان؛ وفيما كانت تصيح الديكة كان يحسّ أنه تجلّد، يرتجف، ولا يشتهي أي شيء، فالجسم مازال نائماً في كسل؟ وتثاءب صامتاً.

آخر إصلاحات الشباك، ولعاب بشر على الريق، لزج كالنوم. كانوا يمسكون بالشباك، من أعلى، بأسنانهم، فيما اليدان، والأصابع، تعقد هنا وهناك أطراف الخيطان التي تتدلى، حلقات صغيرة محلولة.

كانت الكلاب تنتظر، وقد نبهها إلى الغزوة نشاط الصيادين. كانت

---

(5) الرامة: مستنقع صغير يجتمع فيه الماء.

تدور، وهي تشم بمناخيرها التي من لحم حي، ورطبة وباردة، حول الخروج[6] من حبال مجدولة ملأى لحماً جافاً وفطائر ذرة ودباءات[7] ماء قراح وقهوة حارة، وأغطية، وقد تكدس الكل تحت البنادق بفتيل والسواطير فوق كومة قش لها رائحة مزبلة جافّة.

ثم امحوا. رحلوا. ولحق بهم القمر. جلد قشرة بيضة رقيقة. ولم يبق الآن سوى الشمس وحركة البيت، ونساء في البيت.

«..... من البحيرة الكبيرة لم يبق إلا رامة ماء، من البيت العتيق، الرواق الصغير ودراهم كانت تتداول في ذاك الزمن، قطع عملة لا قيمة لها في براميل رماد...».

مستحيل أن تأخذ شيئاً آخر من الصيادين، وهم يصلحون شباكهم، غير هذه الجملة السحرية. أخذوها كما هي عن الناس الذي خلوا، يرددونها كما هي، وكما استمر هو على تردادها وقد اتجه إلى الرواق لما اختفى الصيادون.

... رامة الشحّاذ...

نعم، وما كانوا يضيفون شيئاً. وحركت الأشجار ريح عنيفة. كصوت ماءٍ خبطوه. صفاء النهار كان يناقض نزق الريح. غير أنه وجد له ملجأ على عادته في الرواق الذي أخذ يستيقظ. نظر إليه؛ طافت به عيناه. كان درب من العشب يصعد إلى الأرض المبلطة، حتى المكان الذي فيه العقرب الميت. لقد ألصقه الدم بالأرض لما سحقه بحذائه. وانتزعته النمال ثم سارت. كانت تحمل العقرب. كانت تتقدم آلاف القوائم الصغيرة تحت تلك الكتلة اللزجة التي تغطيها كتل من نمال أخر. كان حملاً ثميناً. والعقرب إذا أحسن حفظه، بقي كل الشتاء. ومن أجل ذلك تتنازعه قرى النمل. تصل حتى إعلان الحرب؛ إنه كنز. وربما كانت لا تعرف العتّالات هذا الأمر. عملها كان أن تحمله رأساً،

---

(6) جمع خرج.

(7) تسمى يقطين في بعض المناطق: ثمرة لنبات معترش تستعمل كمطرة.

ولذلك حملته، بعض تحته وبعض على الجانبين وبعض من فوق. وكان يبدوأن العقرب الميت استردّ حركات ذنبه الخطرة وابرتيه.

لكنه لم يكن وحده الذي لجأ إلى الرواق فراراً من الريح. فقد كانت فراشات بيضاء ثقيلة ورطبة تسعى إلى مأوى الجدار والسقف وقد غللتهما الشمس. أجنحة بيضاء في جنازة العقرب الذي رفعه بالقوة النمل الذي يتبعه موكب من آلاف النقط السوداء، موكب حزين يقف أحياناً، عندما تتبدل العتّالات أو ترتاح.

وأصابه تقلص عضلي في القدم لطول بقائه معتمداً قاعدة العمود، ولشدة ما استأثر به منظر هذا الدفق الاحتفالي؛ وضرب قدمه عدة مرات على الأرض، إلى أن استرد عدا عن وزن الحذاء الميت الذيَ كان يحرّكه ككيس فارغ، إحساساً بقرية نمل، كأن النمال صعدت على طول فخذه، وليس من ظاهره ـ استمر يضرب الأرض بقدمه ـ وإنما من باطن، بين اللحم والجلد.

وتركت العتالات العقرب، الذي كان على أهبة النزول من الرواق، على أول ضربة من حذائه الكبير المنمّل من نمال التقلّص العضلي. وتفرّق الموكب وبقي من الدفن ارتعاش أجنحة الفراشات وحده في الهواء الفاتر الذي تندّ عنه رائحة ورقة سنديان جافّة.

واصطنع هيئة من لا يدرك شيئاً. مناورات نمال ترسم شباك صيد سوداء في العشب الأخضر، حلقات حداد تنعقد وتنفرط دون أن تختلط.

رامة الشحاذ، مستحيل أن ترى من الرواق الصغير، حتى ولو وقفت على رؤوس أصابع قدميك أو صعدت على قاعدة الأعمدة. كان أفضل له لو ذهب مع الصيادين. فقد كان بوسعه أن يمشي هناك، معهم، صامتاً، يصغي إلى الماء بين النينوفر، ذات الأوراق الخضر، السمينة والأزهار الكبيرة النهديّة، والبيضاء كفراشات مائية. كان يطفو هناك وهو يفكر بالرواق الصغير. طرد ذبابة بيده. مع أنه لم يكنِ يأكل قصباً. نعم، لكنه كان مشغولاً بالتفكير...التفكير حلو يطلي عظم الجمجمة والوجه بالسكر، والذباب يحب عسله، الذي لا تلمسه ولو أنه موجود. أبعد الذباب بإيماءة بطيئة.

لماذا لا يستطيع أن يكون بنفس الوقت في رامة الشحاذ، مع الصيادين، وفي الرواق الصغير يتأمل دفن العقرب الذي عاود النمل حمله؟

كان ذلك صدعاً لا يستطيع رأبه غير الفكر، مادام قادراً على أن يكون هنا، وهو يفكر بأنه هناك، على حافة الماء التي تلطمها الريح، مياه لها رائحة معدن ومذاق تيرْب[8]. وفيما يلمس الأعمدة كان يرى العشب يتحوّل إلى ماء راكدة، بين مزارع الموز المشحوذة أوراقه كنصال كبيرة وأشجار القابوق الضخمة والصبار ذات الأشواك.

ولو أنه هناك مع الصيادين، كان يكفيه أن يفكر بالجدار، والأعمدة، والسقف، وقطع العملة وعدة الدواب كي يجد نفسه هنا في الرواق.

لا فراشات ولا دفن. بعض نمال ضالة. بقي وحده حاضراً. نعم، لكن يجب أن يكون غائباً عن أمكنة كثيرة أخرى، كي يكون حاضراً في رواقه. ملس بيده ثيابه. إنه هو. كان ولا شك هنا، حاضراً ولكن غائباً عن أمكنة عديدة. نعم كان بوسعه، بالتأكيد، أن يكون هنا وهناك، بالفكر، على هواه. ترك الرواق بخطاً مختنقة، حتى يستمر هذا الجزء من البيت على الاعتقاد بأنه حاضر.

## 4

عيناه كانتا من رماد جمر ذاب، رماداً أكثر منها فحماً أسود؛ وكان يعتمد عصا معقدة كي يذهب إلى خمّ الدجاج، وهو يمايل جسده الذي من دخان، على مذراة فخذيه، مكوّماً، جافاً، متقوقعاً، رأسه داخل بين كتفيه اللذين تكاد تلامسهما أذناه. لكم شاخ! كان يختنق صوته عندما يدندن بحكايات الغرقى.

كان يقول، لو أنهم يجففون صدفة **رامة الشحّاذ**، كانوا يجدون في

(8) تراب نصفه مواد عضوية.

عمقها مقبرة بلا صلبان. هياكل عظميّة، مغسولة، نظيفة، هياكل عظميّة شعرها أخضر وعيونها فارغة. رموها هناك... أسرى قرصان...

كان يقطف ورقة بيده الراجفة، فيسحقها كدودة بين أصابعه، ويتحسسها. كان أحياناً يشير بأن يرفع عصاه إلى بعض ثمرة على شجرة، أو غيمة ما في السماء.

لكم شاخ. لم يشخ منذ قريب. منذ بعيد. تجيء لحظة في الحياة نبدأ فيها بأن نقول كنت. والاسم والعمر، كل شيء يذهب دخاناً.

نظر إليه الشيخ وهو يمر، معتمداً عصاه، راجفاً كورقة. حتى إذا توقف، أزال الشق دون أسنان، تجاعيد الفم العجوز.

ـ ما اسمك؟

عندما يرى الشيوخ طفلا يسألونه منذ أن تحط نظرتهم عليه ما اسمه. الأسماء. هذا الاستيضاح الهزيل. ابن. حفيد. بلى حفيد. كانت كنيته واسمه على طرف لسانه. قالهما دون تردد واتبعهما بـ «في خدمتك» حارّة.

أخرج الشيخ محرمة من جيب سترته الواسعة؛ أصابعه كماشات من عظم وغضروف. كانت التصقت بالمحرمة سكّرة(9). انتزعها ببطء وحملها إلى شفتيه. ثم أخذ يتطلع حواليه، ويده تعتمد العصا، وغار رأسه جدّاً بين كتفيه، رقيقاً، عظميّاً ضعيفاً.

ـ أما كنت تريد أنت سكرة؟

أنت. ما كان في المنطقة حتى عشرين ميلاً سواه كي يقول له أنت. رامة الشحّاذ، مقبرة بلا صلبان، الرواق الصغير، أثر البيت الدارس، قطع العملة، القرصان...

أمسك أفكاره أمام الجد، وأخذ ذراعه على جاري عادته، من أجل عونه

(9) ترجمة bonbon أخذناها عن العامية.

وأكثر من أجل أن يلمسه. ولربما حزر، في هذا الاحتكاك، السرّ الذي يحيط بعالم طفولته. لكن ما كان بوسع هذه الذراع الوانية أن تنقل إلى أصابعه؟ وطوى الشيخ المحرمة التي ذبل عطرها. كان في نهاية النزهة، يجلس حيثما اتفق، على حجر أو جذع شجرة وينام في رابعة النهار، تحت قبعة من اللبد اختلف شكلها وخرجت منها خصل بيضاء نحيلة على النقرة، وهو يمصمص خدّيه وكأنه يتذوّق في حلمه السكرة التي انتهى منها، وقد أراح العصا بين فخذيه المقوّسين، وتدلت كفه من طرف ذراعه وضم قدميه.

لما وصل، بعد الدورة الكبيرة، عن طريق الحقل، اتجه إلى الرواق،وهو يرقبه من بعيد، كأنما يريد أن يفاجئ العدو. وارتمى فوق الأرض على بطنه. والأمر لا يتعلق هذه المرة بعدو وإنما بعصابة لصوص. وتقدم وهو يزحف على كوعيه وركبتيه وصدره... البرية في حرب. هيا إلى الهجوم! لقد أصبح سيّد الرواق الذي امتلأ باللصوص؛ جرّدهم من سلاحهم بجرأته؛ فرّوا. بعضهم قادم. بان! بان! بان! أنهاهم. حصان. طيف حصان هوائي بين الأغصان. استدار، كي يلاحقهم، ثم عاد، إلى الرواق الصغير، الريّاب، العفن، الأخرس.

لماذا ينام الشيخ الصغير؟ لماذا لا يحكي له قصصاً؟ (وأنت أما كنت تريد سكرة؟). كان صوته البالي يحتفظ برنة رجولة أليفة ورقيقة. كان الصيادون يتحدثون عن ينابيع خبيثة تغذي **رامة الشحّاذ** ونهر تحت الأرض لتصريفها، هو أحد تلك الأنهار التي تجعلها الهزات الأرضية تنبثق على السطح مثل حيايا من طين. الأفاعي العملاقة التي تتحدث عنها الخادمات. لابد من أن إحدى هذه الأفاعي قد مرت على البيت القديم، ثم وداعاً، فلا ناس ولا حيوانات، وداعاً للشجر، وداعاً للطرق...

بقي الرواق الصغير وحده. التفت كي يبحث، في الأفق، عن اتجاه **رامة الشحّاذ** الصحيح. كان يحزر ما حدث أو يخترعه. جزء من رواق ضائع، لا يتمم أي رواق آخر ولا يفيد في شيء. غرف مظلمة تسكنها دويبات، وعناكب، وعقارب، وبراميل، براميل صغيرة شكلها مثمن، ملأى بقطع العملة؛

مستنقع يروى أنه كان بحيرة؛ والشيخ النائم الذي كلمه بصيغة أنت...

وثارت في أصابعه عصبية مفاجئة فتقلّصت، دون أن تتوصل إلى أن يشبث أو يتصالب بعضها ببعض. الفكر نفسه تخلّى عنه في لحظة الاختناق هذه، قبل القفزة في السرّ، وقبل أن تتوطد العلاقة التي كانت قائمة بين هذه المواد وماض بقي حياً على هذه الأراضي، غير أن أحداً لا يتكلم عنه.

ورفع رأسه. الحقائق الخفية، الماضي الذي تلمسه في ما لا يلمس، وهو حاضر في كل ما يمكن أن تمسّ، في الهواء الذي تتنفس، في الماء الذي تشرب، في جذور الأشجار العملاقة، في هياكل المقبرة العظمية المغمورة، في عيني الشيخ الذي يهزهز رأسه، في نوم حلو قريب مِن الموت.

كان يحسّ بما يشبه الرعدة في جسده. كانت ترتجف أجزاء من جسمه تحت ثيابه. كأنهار تدغدغ وتجري من كيانه. أنهار خفية، تغذي ما يخفي، السرّ العظيم.

كان، على دائم عادته، قعد أم وقف، أسند ظهره على الجدار أم أحد العواميد، بلا حراك في الرواق الصغير.

## 5

كانت تقيل عائلة من الرحّل في الرواق. ودعته فتاة بيضاء، طويلة الرموش، شعرها على خضرة زعرورة، كي تسوّي له قبّة قميصها. دعته بكنيته. كانت تعرف إذن. قليلة هي حاجات عائلات الرحّل المنزلية، التي تجيء لقضاء الليل ثم تذهب للتوّ. بعض قطع نسيج ملوّنة على الأكثر تفرش على الأرض كي يستطيع كبار السن أن يتمددوا. فيما يثرثر الآخرون في فتور وهم نصف جلوس. ويساعد الأبناء الأمهات في إعدادهن ناراً كي يسخنوا القهوة وفطائر الذرة.

ترك البنت تسوّي له قميصه. ثم لفّت كتفيه بذراعها وشدّته إليها وهي تنحني كي تسند خدّها إلى جبينه. وعمّت كل جسده موجة فرح حارّة. خفض عينيه وشكرها بجمجمة صغيرة غامضة. غير أنها بعد أن داعبته بخدها أخذت بيده. وابتعدا عن الرواق عبر الحقول، وهما يحزران الدرب في العشب.

- إيه! ايلد يفونسا ايتيني بالصغير!

والتفتا بنفس الوقت لما جاءهما صوت رجل متوسط القامة، غارق في قميص من جلد، يلبس على رأسه قبعة حوافها عريضة، يمسك بسوط في قبضته وفي فمه سيجار أشعله.

تسمرت الفتاة. رشقة ماء جليدية على حنانها. تركت يده، حنت رأسها بين الضحك والدموع، ورموشها انسبلت على وجنتيها البيضاوين.

ورجع ثلاثتهم إلى الرواق الصغير.

قضوا القيلولة واستأنفوا طريقهم. لم يدعوا غير حطبات احترقت إلى نصفها ونثار ريال مزبد من قهوة فارت على البلاط، ورماد خدّشته فطائر الذرة القاسية كظفر ورائحة مبهمة للحم جافّ. لماذا لم يقل لهم بأنه المالك؟ لقد وجب أن يصيح لهم بذلك ماداموا يغذون إلى عمق الطريق المنخفض.

ايلد يفونسا، والرجل ذو القميص من جلد، والكلاب الهزيلة الرمصاء[10]، والناس الآخرون.

الكلاب وحدها عرفت... ماذا عرفت؟ لطول ما شدوها، فجروها بالحبل الذي تلبسه على العنق، أصعدوها إلى الرواق. كانت لا تريد. كانت تغرز أظافر قوائمها الأمامية في الأرض، وقد وقف شعرها، ولم تهدأ لما ربطوها إلى أعمدة الرواق.

لقد عرفت كل ما يجري في الخفاء في هذا الملاذ المغطّى بالقرميد، وقد

---

(10) التي في عيونها عمش.

فتح جداره على البرية، وعلى الأفق الذي وشّته النجوم. لم تعو، لكنها كانت تكشف عن نواجذها كلما هزّتها قشعريرة خوف.

نعم كان يوجد هنا الهاخادو(11). اسم يلفظه نادراً الصيادون، بشر هذه الناحية ألها خادو.

أشاح بعينيه عن الحضور الأجنبي. كان مايزال يرى الكلاب تكاد تقتلع أعمدة ملكه بالرغم من أنه خراب. صورة بيضاء، ملحاح، نفذت إلى لحمه، حلوة كالدخان. شم رائحة الزعرور. ابتعد عن الرواق. كان يودّ لو يومئ، لو يصيح، لو يتخلص من المجنونة التي أرادت أن تأخذه من يده وتختطفه. هي أيضاً عرفت، مثل الكلاب، بوجود الهاخادو في الرواق الصغير؛ ومن أجل ذلك كانت تريد أن تأخذه معها في بحثها في العيص عن منافذ ممكنة للسرّ: عن أبواب يمرّ بها الذين لا يفرون مرّة واحدة، عن نوافذ ما يكاد يسحجها المنتحرون وهم يرمون بأنفسهم إلى الشارع كملائكة. خرجت معه كما لو كانت تلعب، كي تنجو بنفسها فلا تجدها وجهاً لوجه وألها خادو.

إيلد يفونسا. كان هذا اسم مجنونة. كانوا يأخذونها إلى الجبال والوديان كي يشفوها. والعائلات التي بينها مجانين يجب أن تغدو رحّالة. جال بالرواق خطوة خطوة. ظل كل شيء شبيهاً بما كان. المساحات، الخطوط، المسافات، المواد، العوالم، نور مختلف نقاؤه؛ والذباب يطير واطئاً، يرنّ خطوة على القرميد. إيلد يفونسا. يودّ لو أنه يعطي مغمض العينين كل قطع عملته الكابية من الرماد ثمناً لهذه المجنونة. لكن كيف يتخيل أنهم يستطيعون بيعها، أو انفكاكاً عنها لقاء بعض القطع ماداموا يصطحبونها كبوصلة، في المقدمة، بين الكلاب المربوطة، وخراطتها لفّت على حزامها، وشعرها الأصفر مطر على كتفيها المدوّرين، وظهرها وقدماها بيض، جدّ بيض.

---

(11) معناها الحرفي المتزيّن بالمجوهرات والهاخاديتو هي تصغير الهاخادو. وجمعها: الهاخادوس.

قصبة سكر. العصير الحلو بين بصقات اللعاب الممزوج بالدم، لأن اللثة جرحها الناي ذو الأشواك في قشرته التي من عاج. نهديّ[12] اللون. كان مذاق القصب الممتع يريحه من أفكاره السوداء. فقد كان يمزق، أولاً، القشر بضربات أسنانه، ثم يوغل، بعد القواطع والأنياب، شفتيه، وأنفه، وخديه وذقنه في القصبة التي مضغها حتى انتزع القطعة التي استمر على مضغها بلا ونى، بفكيه فكي مجترّ، بحثاً عن آخر نقطة عسل. ما كان يدع، خازن الحلاوة، للألياف البائسة غير عطشها. وآخر النقط هذه، كانت أشهاها، لم تستسلم مباشرة، لأنها كانت مختبئة. كان يبعد بإيماءات بطيئة الذباب عن وجهه الملطخ بالشراب حتى الأذنين. الرواق، الجدار ومن الجهة الثانية... لكنه الساعة كان في الرواق الصغير يأكل القصب الحلو وما كان راغباً فيَ التفكير.

## 6

حمامة سمينة تضرب اليمائم. ريش سماوي، منقار وردي. زحام في العشق هنا وهناك. كانت اليمائم وهي نصف أنيقة، نصف مستسلمة، تعدو، ترفرف، تهدل. والماء يجري من مغيض[13] يسكنه البطّ وتشرب منه الحيوانات. والرجال الذين يأتون بالخضار واللحم، والسمك، والدجاج والحطب والفحم للمطبخ يبطئون وهم يعبرون الفناء الوسيع. وكانت خيل الفلاحة، والبقرات التي تهب الحليب إلى البيت وعائلات كاملة من الخنازير تبتهج في هذا المدى الكبير، الذي تحيط به أروقة، بحجم ساحة؛ ساحة لها مدخل وحيد.

وكان خيالة يلبسون المهاميز، وجزم فروسية للركبة، وقبعات رأسياتها منتفخة وحوافها عريضة، ومحرمة حول العنق، يذهبون من باب حجر تسهر عليه صورة يسوع عارية، جالس على مقعد، إكليله شوك، وعصا بين يديه

---

(12) mauve أفضل ترجمة لها نهدي. أخذناها من العامية الدمشقية.

(13) مستنقع صغير.

الداميتين حتى الشفقة. في الصباح كان يحترق سراج قدام الصورة. تقى إحدى الخادمات. قطرة ذهب صغيرة تتهافت ليل نهار أمام الملك العجيب.

لو أنه يستطيع فقط أن يجد في الرواق، رواقه، أصغر منفذ يترصد منه السر. شقّاً، شقّاً يكفي لمرور شعرة. كان يبحث عنه في الجدار، في الأعمدة والأرض والسقف. كان يمكن أن يرى عبر الجدار المتصدع خزانة تحوي مجوهرات عائلته، الهاخادوس. ميازين لوزن غبار الذهب، وصحاف من فضة ثقيلة كسبائك، وبعض وشاح مصبوغ بالدم، وربما بالشمع، ومداليات، وبومات جفت، ومسامير كبيرة، وجماجم وأسلحة. أما إذا كان الشقّ في العمود فإنه يجد مفتاحاً سرّياً صغيراً. كان يلتصق بالعمود، وقد فطّس أنفه، كي يقرب عينه إلى أقصى حدّ، وهو يتخيل كلَ ما يمكن أن يفتح عنه المفتاح الصغير.

جملة صيادين كانت ترفرف في فمه، حتى لقد أومأ، وهو شارد كي يطردها، كذبابة. «طريق الهاخادو عبدّه السواد... ولد في الحداد... عاش في حداد... في الحداد، اختفى...». وما كان يغامر أي صياد بالقول إنه مات. اختفى. وهنا الشيء المخيف. من يختفي يمكن أن يعود. المختفون يمحون زمناً ما عن بيتهم، عن أشيائهم، عن ناسهم، عن أصدقائهم، وعن المرايا المنعزلة. ونعرف أنهم موجودون، لأنهم يستطيعون الرجوع، احتمالاً يجعلهم يعيشون، وجسدهم غائب، بين الأماكن المألوفة لديهم. إنهم غائبون حاضرون بنفس الوقت... ليسوا هنا، ومع ذلك هم هنا. لأنهم ليسوا غرباء على الذين عاشوا معهم وبقوا. وجودهم يقطعه الخواء في حياة معاصريهم. إذا رجعوا امتلأ الفراغ من جديد، بحضورهم وذكراهم.

«طريق الهاخادو عبّده السواد... ولد في الحداد، وعاش في حداد.... وفي الحداد اختفى...».

اختفى...

كان الصيادون يقولون هذا في نبرة جدّ غريبة، كأنهم يعبّرون أو يحاولون

أن يعبّروا بكلمة «اختفى» عن شيء أكثر من الواقعة البسيطة لرحيله دون أن يدع أيّ أثر، كأنما رحل هو وكل شيء وكل من حوله، أصدقاؤه، نساؤه، خادماته، متاعه، وخيوله السوداء ومجوهرات حداده.

هل مات؟ هل ماتوا؟ من يدري... هل رحل فحسب؟ هل رحلوا فأخذوا كل شيء معهم، كي لا يظلّوا حاضرين في الغياب؟

من يجعل، وهو يرحل، أو يموت، أهله يذكرونه، ويستمرون على الإحساس بأنه يعيش معهم، لا يكون رحل نهائياً، لا يكون مات تماماً؛ يذهب ويموت قليلاً قليلاً مع أهله وأصدقائه ومعارفه فهم يواصلون بعده الرحيل أو الموت، حتى اليوم الذي يكونون رحلوا فيه جميعاً واختفوا.

وهذا ما حدث للهاخادو، لما قال الصيادون أنه اختفى؛ فقد كان يجب أن يذهب عنهم حتى يختفي تماماً. كان يقيم عبادة للص الشرير. وضع على تلّة صليبه بدلاً من يسوع، صورة جيستاس، وعلى يمينه، ديماس، وعلى يساره يسوع. ولقد وُجدت، منذ زمن بعيد، في الرواق الصغير أوراق صفر تحوي صلاة للص الشرير.

في رواقه، حيث كان يوجد. شباك العنكبوت التي تؤلمس جواهر الأمطار الأولى كانت ترسل أضواء ساطعة. وما كانت تكتشف العين خيوط العنكبوت هذه في أكثر الأمكنة وضوحاً حتى اللحظة التي تحنيها فيها نقط المطر الشتائي الصغيرة بوزنها الهيّن. كانت رؤيا الألماس الجلية، حيث ما كان يرى شيء قبل بزوغ الشمس، تغذّي أمله بالعثور على شقّ يبيح له النفوذ إلى داخل ما لم يكن حتى الآن سوى مساحة لا تسبر، بلاط جدار عتيق، خشب عمود قرضته الديدان.

لقد اختفى ألها خادو في داخل الأشياء كي يبقى حاضراً في تلك الحرية الكبرى للماهيات الغامضة. لقد استمر على العيش معها راكعاً قدام اللص الشرير أو مشغولاً بذبح القرصان. كان لزاماً عليه أن يجد شقاً في العمود كي يباغت وجوده، بين الديدان العمياء التي تفتح أنفاقاً في الخشب، في حجارة

الحائط الذي تثقبه ماء الشتاء قطرة قطرة، أو في رماد براميل قطع العملة، أو في غرف البيت الكبير التي أفسدها رشح الماء، أو تحت الأرض، بين القبور بلا موتى أو في رامة الشحاذ...

شقّ...! شقّ...!

## 7

العاصفة تفاجئ دائماً، حتى عندما تتفخّم السماء وتنبئ بالمطر. كان الرواق الصغير مثله مثل البيوت الفارغة مَن السكان، والأشجار والحيوانات، يدفع عن نفسه الغيث بسقفه القرميدي الذي يبدو، تحت المطر، كريش دجاج ابتلّ. لجأ إلى هناك مقهوراً باسماً، بعد أن تلقى بداية المزنة، التي داهمته في منتصف الفناء وأكرهته على الركض. يداه في جيبي بنطاله، وقد رفع قبة السترة، وشد قبعته حتى الأذنين، وحذاؤه زلابية[14] بردت.

غرقُ النقيب سوب (شوربة). بقع الأشجار، بالونات خضراء أسيرة؛ بالونات حرة هي الغيوم التي كانت تسبح في ظلمة الزوبعة المنيرة، بين أعصاب السماء التي أنارتها العاصفة كالألياف العصبية التي يوقدها ألم الأسنان بين اللحم والعظم في وجه العين الموجوعة، التي تطرف، وهي جاحظة.

استند إلى الجدار القاسي المتجلد. علّ عدوى ما لا يحس تدفعه عن احساس بألم الأسنان. وأخذ المطر يصفعه مائلاً. والرواق، الذي لا يدعمه إلا ثلاثة أعمدة، كان يهدد بأن ينغلق كمظلة فيما النقيب سوب، وقد انغرز في الجدار، عبوساً وخائفاً، في سنه المؤلمة حركات أقدام ضفدع لا إرادية لدى كل شحنة، يأسف على البيت الكبير فلن تتأخر في الخروج بحثاً عن جماعة خدم شبحيّة من هنود ذوي جدائل، بعد أن تغلق النوافذ كي تحفظ الجلائل، والبسط والأثاث.

(14) الفطائر التي تقلى بالزيت أو السمن beignet.

كانت تنغلق عيناه لطول ما حدّقتا إلى المطر، فرتابة المنظر تدفع به إلى النعاس. وخفّ الألم تحت الخدّ. أخرج يديه المتجلدتين من جيبيه وفرك وجهه كي يستيقظ، وتحاشى أن يفرك بشدة في مكان السن فقد نامت هي أيضاً.

لم يبق هناك. قفز من على السفينة كي يتجنّب الرامة، وعن طريق حجارة مغسولة ودرب من طين، بين أسيجة تقوّضت، ونعاج بلا راع، وثيران مضطجعة، وبغال مبتلّة وصل إلى الشيخ ذي العصا الذي كان ينام مفتوح العينين. عاينه بعد أن رفعه بين ذراعيه، ومازالت يده ممسكة بالعصا، وشرع في حمله أو بالأحرى بجرّه. لم يكن وزنه ثقيلاً. العظم والجلد، والشعر والثياب. أين يحمله؟ إلى الرواق الصغير. إلى عنده، إلى حيث يجيء بالناجين من الغرق. غرز قدميه في الطين كي لا يسقط هو والشيخ، وكان يغدو بين الفينة والفينة سجين شبكة المطر التي كانت تشلّ حركته وهي تكثف خيوطها. وكسر الهواء زجاج المطر وفتح له ممرّاً. وصل إلى الرواق. لم يستفق الشيخ الصغير؟ وعيناه مفتوحتان، ثابتتان؛ ربما كان يحلم. كان الخدم على أهبة الخروج من البيت الكبير، في رتل هندي، ثم يتفرّقون كجرذان بيض، في كل الجهات، حفاة، يتأوّهون، بناطيلاهم مشمّرة، والقميص رطب التصق إلى العظم. أما إذا لم يجدوه، فسوف يعودون عند حلول الليل، لما ينقطع المطر بمشاعل راتنج تحترق بلهب مجنون.

الشيخ اللعين!... كانت الخادمات السمان كالمرق المدهن يتذمرن وراء النوافذ في منجاة من الأعصار. ـ ماذا يفيد من حياته؟ لا شيء!... إنه ليس بقادر على الموت فيغدو روحاً في المقبرة، ولا على العيش تماماً فيهتم بشؤونه.

وأضافت العجائز بعد أن أعمين الزجاج بأنفاسهن:

ـ وهو، فوق ذلك، أول ميت يحتل مكاناً في مدفنهم. كان على حق السيد ألجواسيل[15] في هزّه كي يعيده إلى نفسه، فالهنود المجعدون كضفادع،

---

(15) الحاجب.

وكلهم عجوز، يطالبون هذه المرة بأراضيهم. ورق مدموغ، وأختام من شمع كسحجات، وطريق الكنوز....

لم يجدوه. كانت زخّات المطر وظلام الليل تطفئ الراتنج المبلل. وجدوا العصا ولا خطوا الدعس على الأرض. ربما أخذته الزوبيلوت[16]، أو التيار، فهو أحمر كالجمبري وله ذقن كمعزى.

رسم الخادمات إشارة الصليب. في هذا البيت كلهم يختفون. أحدهم ذهب والمائدة جاهزة!... الآخر وسريره معد لليل! وآخر أيضاً، فيما الصالون مليء بالمدعويين...

لو يعودون كانوا يجدون الأبواب مفتوحة، وعلفاً في الاسطبلات إن جاءوا على خيل، وصحونا تفيض فواكه وحلوى، إن كانوا جائعين، وخمراً في الكؤوس إن كانوا ظماء، ظمأ إلى الوهم أو ظمأ في الحلقوم، وأسرة حاضرة، فاترة، ناعمة، وأغطية من كتان بلا دنس، إن كانوا سعداء بالعودة والراحة في بيتهم.

كل شيء كان نائماً. في السماء الليلية، هناك، جدّ بعيدٍ، بدأ القمر يصعد، بين جبلين من غيوم. وخال الخدم الشبحيون والهنود ذوو الجدائل والخادمات اللائي جسدهن من حساء مدهن، وكأنهم يستيقظون من حلم، كأنهم يسمعون مشياً تحت البوابة. خطاً لها صدى... ونعرف أن خطا الموتى بلا صدى... من يمكن أن يكون هذا؟ من يمكن أن يعود في هذه الساعة التي لا يعود فيها أحد أبداً، ألف أبد.

## 8

وصل إلى البيت الكبير من الرواق بحمل لا يتجاوز وزنه عنكبوتاً صغيراً ابتلّ بالمطر وتمدد بين ذراعيه على صدره الخافق. وفيما يعبر بوابة الحجر العارية،

(16) رخ صغير في أمريكا الوسطى.

المفتوحة دوماً على مصراعيها ارتعش الشيخ من أنّه حيّ، ثم عاد فتصلّب. ولقد وضع خادم محارم مبلولة بعطر على جبين وصدغي الجدّ، ودلك له يديه اللتين تقلصت أصابعهما كصوار تخفق عليها عشرة أعلام من حراشف الأظافر الطويلة القذرة، وأسرع خادم آخر بإغلاق النوافذ. كان هذا عمله، شاغله الوحيد. أن يفتح ويغلق النوافذ. وكان يشطر أوراق الخشب الثمين واحدة واحدة، في بطء، بإيماءات واسعة، بل احترامات، ثم يمدها على الزجاج. ونفض سيد الرواق يديه، كأنه أتى بقليل من التراب الرطب وذهب.

هل مات في الرواق؟ هل كان ميتاً عندما التقطه؟ هل مات غريقاً؟ مات من برد؟ من شيخوخة؟

تسمّر، برهة طويلة، وأصابعه مرفوعة كي يرسم إشارة صَليب، وهو يفكر بأنه كان يمكن إنقاذ الشيخ الصغير، لو أنه بدلاً من أن يجرّه في الرواق الصغير وهو يلعب دور النقيب سوب والغرقى، أخذه إلى البيت الكبير مباشرة لانتزعه فيه من الموت الخدم الأهتمون ذوو الجدائل بالزهورات، والسخانات، والكمادات الكاوية بأبخرتها والصلوات التي يموؤون بها.

ترك سريره، مرتاعاً من الصمت واتجه، دون ضجة، عاري القدمين إلى الكهف الذي وسدوا فيه الجدّ الشيخ. استمر المطر على البكاء في الخارج. ثم وبعد هدنة طويلة، صحو طلع فيه القمر، وسمعوه يدور قلقاً في المزاريب والأنابيب التي تجمع ماء السطوح.

لا أحد. وجد السرير الذي وسدّوا فيه الشيخ، لكن السرير وحده. النوافذ مفتوحة، وأنوار الشمعدانات باتت دخاناً أكثر منها لهباً. أغلق عينيه فأحسّ به هناك. فتحهما فلم يجده. نفض السرير؛ وقعت البياضات والأغطية والمخاد والمساند على الأرض. فتش تحت. لا شيء. لا أحد. كان يغلق عينيه فيحس به هناك. ويفتحهما فلا يجده.

بزغت الشمس. عمره لم يلبس هكذا بخفّة. داس قميص النوم المظلم، الشبحي. القميص، البنطال، الجرابات. الحذاء. جاهز. في غرفة الطعام، على

الطاولة صحاف الفضة الخالصة حدّ صحنه وفنجان الصيني المعرّق بالذهب. اليوم وقد غاب الشيخ الصغير أدرك أنه كان دائماً يتغذى معه. عندما كان في مواجهته، لم ينتبه يوماً إلى الجدّ، أما الآن فبوسعه أن يفعل إذا أغمض عينيه وتذكر. أخذ منشفته وفضها. بدأ الخدم ينهمكون. لما رأى خادمة تدخل وهي تحمل القهوة والحليب في إناءين من فضة، سألها عن أخبار الشيخ الصغير الذي كان يتغذى معه دائماً. وبدأت الخادمة تثرثر دون أن تضطرب:

ـ أعن الريّس تسأل؟ اختفى. في هذا البيت، كلهم يختفي.

ترك القهوة بالحليب، دون أن يذوقها؛ شذاها الحار اللذيذ وحده صعد حتى وجهه؛ ترك المنشفة تسقط وصعد عِدواً الأدراج الرنانة، بحثاً عن الصيادين.

سألهم أيضاً، وأجابوه جميعاً بنظرة مبهمة، رطبة.

قال لهم: «لكن ألا تستغربوا اختفاء هذا الرجل؟ ما قصص الاختفاء هذه؟

وصيادٍ مشوّه يعد الطعوم للسنارات، لا يدعه في سلام الذباب، وقد اجتذبته رائحة الأحشاء النتنة. وذبابات تجلدت تدع نفسها للسقوط بغتة فلا تستأنف طيرانها إلا بصعوبة، وقد التصقت على الدم، أو الرئات، أو الأمعاء.

سوريلو. هكذا كانوا يدعونه. سوريلو. كان يحدث له أن يأكل من تلك الأحشاء، التي على عفن ميت. ظل يحدّق إليه سوريلو بين ضحكتين. ما بوسعه أن يسأل هذا البائس؟ أو الآخرين؟ أو أيّاً كان؟ اختفى... لقد اختفى.

بعض الجيران جاؤوا يوصون على سمك ويدفعون الدراهم مقدّماً للصيادين، قطعاً تشبه تماماً قطعه، قطع براميل الرماد.

كان البيت، من الناحية التي ما بنيت بعد، يطلّ على البرية، التي تتصل بالمرج الذي يزرع فيه رجال خيمة دون أن يطلبوا إذن مالك الأرض لأنهم لم يجدوا من يبحثون معه في هذا البيت اللامسكون والمسكون، وقد قال الخدم لهم إن السادة غائبون وإنهم سوف يعودون.

وفيما ينزل الصيادون من الشعب إلى رامة الشحاذ، كان ناس الخيمة الذين وصلوا للتوّ، رجالاً ونساءً، رجال لهم ذقون وشوارب وحواجب سوداء، بعضهم موسوم بالجدري، والفتيات لهنّ أكعب حتى السماء، وسيدات يحملن أمشاطاً مرصعة بالحجارة الكريمة، يمدّون الخيمة على الأرض، على العشب، كجلد دابة كبيرة بيضاء؛ وقد أعدّوا الأدوات لحفر الحفر من أجل العمد المركزية والدعائم والركائز لمقاعد النظارة.

جاء خادم يبحث عنه وهو الذي سلمه الليلة الماضية الشيخ الصغير. ترك مشهد أقفاص الحيوانات التي ينزلونها من عربات واطئة ذات عجلات كبرى وتفوح منها رائحة البول.

هذا الجديد هو السيرك؛ صناديقه الملأى بالثياب وتلكَ الصداقة المرتجلة بين ناس السيرك والجوار؛ تلك الدندنات والوشوشات؛ الصواري العالية المزروعة في حفر عميقة مدعمة بحجارة أتوا بها من بعيد ـ لا حجارة في المرج ـ والخيل المروضة، الصغيرة، الذكية، أعرافها كثة، أخذوها كي تغتسل بماء رامة الشحاذ. ونمر يتحركِ دون انقطاع، ساعات كاملة...

قال خادم وهو يقترب منه: «يا سيد، أيها السيد الصغير، هنالك من يريد التحدث إليك...». فكر في البدء أنه الميت أو المختفي؛ ولم يركض لأن الخادم الأجرد ذا الجدائل كان يشير بنفس الوقت إلى رجل ذي شارب حاجباه متصلان، وفي أذنيه شعر، وفي أصابعه خواتم كثيرة، وسلسلة ذهب على صدريته المخططة وغليون من تراب.

فاجأه أن مدير السيرك يرغب في الكلام معه.

قال الرجل ذو السالفين الطويلين والشارب: «فلنذهب إلى عندك». وقد ترك ناس السيرك يشتغلون برفع الخيمة التي أخذت تصعد الآن كمنطاد حتى رؤوس الرماح فكونت بذلك الدائرة الأولى، الدنيا، ثم رفعوها بالبكرات، والحلقات والحبال حتى أعلى الصواري، التي يثب منها البهلوان وقد غدوا ملائكة.

في البيت، انتظر رئيس السيرك حتى جلس على كرسي، جاء به الخادم ذي مسند عال وذراعين طويلين منجدين بالحرير، ووضع قدميه على مخدّة من مخمل لها أربع شرّابات مذهبة.

قال الرجل، وغليونه المشعل في يده المثقلة بالخواتم: «دلّوني على أن رفعتك غدوت منذ ليلة البارحة مالكاً كل هذا، بعد أن ذهب جدّك وبما أنك المالك وألهاخاديتو، أسألك الأذن بإقامة السيرك».

## 9

الهاخاديتو، تلك هي المرّة الأولى التي يسمع فيها من يدعوه بالهاخاديتو. وأراد أن يفرّ من رائحة دهونات مدير السيرك الشخصية البشعة وقشرة رأسه فخرج عن طريق الأروقة بعد أن أعطى الأذن بإقامة الخيمة في مصلّى اللص الشرير حيث توقف كأنه يريد أن يعدّ المراكع وقناديل الفضة التي تشتعل في صمت ثلجي لنور أبيض، ثم يعود بعدها فينزل درجة درجة حتى الفناء.

ـ الهاخاديتو!... الهاخاديتو!

هكذا كانوا يسمونه إذا مرّ. من؟ إنه لا يعرف. أحد ما مخبأ في الأشياء.

تجنّب ناس السيرك وقد كانوا في سبيلهم إلى الانتهاء من رفع الخيمة، نمل في المرج الشاسع، واتجه سريعاً إلى الرواق الصغير، حيث أحسّ أنه يحميه الإفريز، والجدار والأعمدة. والعشب المجنون، فهو وحيد في الظاهر ولو أنه يعرف أن رواقه في الحقيقة تسكنه جحافل من فئران وصراصير وعقارب...

وعاودته ذكرى الغرق فشرد ذهنه. أعاد عقلياً، في نفس المكان، بناء ما حدث، حتى ليلمس الشيخ الصغير الذي بوزن دمية. هل قضى في العاصفة؟ هل مات في الرواق؟ حين الإنقاذ؟ هل مات في سريره؟ لا، لا. اختفى. وأزاح عن جبينه ريح الهم المظلمة، ودعاه داعي قلبه في دفعات خفيفة بعيداً عن

الرواق، إلى الهواء الطلق حيث سمع من يناديه الهاخاديتو، وهذا ما يعني أنهم يكنونه بالشبح الصغير، المختفي المقبل، لأن الهاخادوس، كل الهاخادوس، كلهم دون استثناء، اختفوا مثل الجدّ.

كانت تسكن الهواء أصوات حلقية لرؤساء ارتجلوا، وعواء حيوانات سجينة، وضحكات نساء، وأغان يدندنون بها وتمتمات أوركسترا.

كان الرواق الصغير وحده يمنحه حضوراً سالفاً لكل هذه الأصوات الغريبة، وغدو ورواح الجوار، الطامحين إلى جديد ما، وهم يراقبون في فضول إقامة السيرك، ويسألون متى يكون العرض الأول.

لقد أرضى غروره أنه أعطى التفويض بإقامة السيرك خلف البيت، أول قرار يمارس فيه سلطة الهاخاديتو. كان يحمل على صدره مجوهرة قديمة تلمع في الظلّ وتعتم في النور. سبج نهاراً. ألماس ليلاً. جوهرة الهاخادوس. مرّ بيده اللابسة كفاً من جلد أيّل على بزّته السوداء، التي من دون زينة غير زريْن أسودين، ورأى إلى حذائه الأسود وتذكر أن الخادم أعطاه لما خرج قبعة سوداء.

ولما لم يكن لديه من ينقل إليه أفكاره، تكلم وحيداً فقصّ على نفسه:

ـ عندنا لا وجود للموت. لم أسمع عن أيّ من أهلي أنه مات. فلم نعرف في بيتنا يوماً المرض الأخير، والجراح، والحوادث المميتة، والنزع الطويل والدفن والحداد. اختفوا. أهلي اختفوا. إن أحداً لم يعرف أبداً، لم يقدر مطلقاً أن يقول، متى كانوا يذهبون، أو إذا كانوا يتركون البيت نهائياً. لا خبراً يعلن. لا استعدادات. الحصان، والسلاح، والطريق...

واستمر يثرثر كالصيادين في نهاية الأيام التي لم يصطادوا فيها أية سمكة.

ـ لو أن رامة الشحاذ جفّفت، كنا نرى وادياً شاسعاً وفي قعر هذه القدر العظيمة مقبرة، مقبرة بلا صليب... هياكل عظمية مغسولة، والأيدي والأرجل، والأذرعة والأفخاذ في وضع السباحين؛ والشعور الخضراء، والعظام، والأشن الدبقة... ذات مرة عادت إحدى الشباك بهيكل عظمي؟ ظنّوا أولاً أنه سمكة

لأنه كان يحوي بين عظامه لحم حراشف لزجة. وكاد يموت رعباً الذي اصطاده. ترك الشبكة وكل ما تحويه ثم سقط في القارب قبض الآخرون على المجاديف دون أن ينظروا إلى وراء.

وبسط ذراعه ثم وضعه على ركبتيه كي يسند ذقنه والذقن تسند الرأس والرأس الأفكار.

... وليت الأمر يتوقف على الذين اختفوا، وقصة المقبرة في قعر رامة الشحاذ، والماء برائحة الحجر والتيرب، والشيخ الصغير الذي مات بين ذراعيه قبل أن يختفي، والخدم اللابسين البيض، سترة وبنطالاً، وأردية الأشباح المرد ذوي الجدائل؛ لو أن الأمر توقف عند هذا الحد لكن جاء الآن البهلوانات والمشعبذون (كان يجب عليه ألا يعطي الأذن!)، كل ناس السيرك الذين يتجولون في البرية بحثاً عن جذور قابلة للاحتراق، بعد أن أقاموا خيمتهم. العساقيل[17] الصغيرة كانت طيبة المذاق، انتقال شهي، حلو وبطيء، للحياة التي تمر من الأرض إلى النبات. بعضها كان له طعم رمل ومطر. هذه التلال طاف بها ويده في يد ايلديفونسا، يد جذر بأصابع؛ اقتربا من أشجار عديدة كي يتأملا الثمار. حلاوة الزغاريد البعيدة؛ بعيدة لأن الطيور كانت تفرّ خائفة، عندما تقترب المجنونة. بات لا يذكرها جيداً. ايلديفونسا، كما تبدعها ذاكرته، كانت مختلفة. ايلديفونسا الحقيقية رحلت. اختفت، هي أيضاً! تلك التي يذكرها كانت شبيهة بموتى المستنقع، الذين كانوا يخرجون ليلاً كي يغتسلوا بالبدر الذي بلون الزعرور.

كان أحد ما يتجه إلى الرواق الصغير. اختبأ قبل أن يرى. قلبه قفز تحت قميصه. كان سوريلو؛ قدماه كانتا مقوستين إلى خارج طرفي الفخذين القصيرين بشكل عجيب. والذراعان جدّ طويلتين، والرأس كقالب السكر، والأذنان كقرنين والذقن إلى أمام؛ وكان يمسك بيده مقلاعاً من خيطان لقمها بحجر. توقف في الرواق كي يتجه؛ كي يلاحظ الاتجاه الذي اتخذه ناس

(17) جمع عسقول: جزء من ساق النبات.

السيرك؛ لأنهم كانوا يُسمعون من مختلف الجهات؛ ثم وبعد فترة طويلة من الانتباه، أخذ وضع الهجوم، ودار عدة مرات بالمقلاع فوق رأسه وعندما وصل إلى الحدّ الأقصى من القوة والسرعة ترك إحدى جهتي المقلاع كي يطلق الحصاة. وضرب سوريلو الأرض بقدمه وضحك، دفعة إثر دفعة وهو يبدي أسنانه في وسط ركام من التجاعيد.

## 10

خدم مرد، شعرهم جدائل، يلبسون رماداً أبيض، شبحيون؛ غرف البيت الكبير مضاءة ليل نهار والأبواب والنوافذ مفتوحة على مصَراعيها؛ والصيادون تجلّدوا من ماء معدني البرد، وهم يمدّون، كما تمدّ العناكب بيوتها، شباكهم في الفناء الكبير المظلم، بعد أن فرغوا، في صوان كبيرة مصنوعة من جذوع محفورة، فضة أسماكهم من كل الأحجام؛ وظلال رعاة القطعان الذين ينزلون عن مطاياهم القوية كي يرسموا الصليب أمام اللص الشرير؛ وعواء كلاب الاسطبل؛ وجري عربات بعجلتين يرتج ثم يتوقف لما تحلّ الثيران وينزل العربجية الذين يرافقون الدواب المكدونة بالصفير، والمنخس[18] على الكتف، حتى حوض الفناء حيث تشرب وهي مقرونة، والنير يعلو وينخفض بين الثور الذي يغطس بوزه في السائل البارد ورفيقه الذي ينفض رأسه كي يبلع ويستنشق الهواء الفاتر.

وحمل الهاخاديتو، وقد اتكأ على إحدى النوافذ، أنفه وقد تزغزغ إلى يده، كأنه يقوم بإيماءة احترام كي يتلقّى العطسة.

مدى عميق بلون تويج، وغيوم من زغب، وحريق عبير قصب السكر المسحوق.

---

(18) العصا التي تنخس بها الدواب.

جال بعينيه السوداوين اللتين تبدوان وكأنهما جزء من أزرار السبج في بزّته، زرّان متحركان خلف عرى تطرف، وهي تبحث عن خيمة السيرك، سلحفاة عملاقة منارة من الداخل، وعلم أزرق يرفرف على أعلى صارٍ وعلى الصواري الأخرى رايات من كل الألوان، خضراء وحمراء وبيضاء، وصفراء.

الناس كالنمل. الحفلة الأولى. أشعلوا كرات من خرق بلّلوها بالبترول والشحم كي تنير المدخل الرئيسي. رؤوس مسيحيين تحترق. وجوقة أبواق، وصنوج وصناديق كبيرة تعزف، حذّ الباب حيث يتكدّس الناس، كي تدعم دعوة المشاعل اللاهبة التي تبصق الذّهب. وكان يتحدث مشعبذ عن المال مع بائع البطاقات في المدخل. كان يتكلم بجدّ الدِمية التي ترى أن ما هي بحاجة إليه، قريب قريب وبعيد بعيد عن يدها اللابسة القفاز.

وأفلتت من إحدى كرات الخرق المتوهجة، كما من عشّ ديدان من نار، فراشة كبرى من دخان تمطى جناحاها بدوائر حتى الهاخاديتو الذي وصل في محفّة يحملها خدمه بسراويل وقمصان من رماد. وقد امحوا عندما طارت الفراشة البيضاء.

جاء مدير السيرك لتحيته. فكشف عن فكّ مذهب وشكا من وجع في أسنانه: نرفزة الحفلة الأولى.

- موسيقى يا مايسترو!

وانتقلت فكرة مدير السيرك الذي كان يعضّ على غليونه فلا يصرخ ألماً - موسيقى يا مايسترو! - إلى موسيقيي الأوركسترا فاستفاقوا واحداً بعد الآخر من حلم، فالتقوا في باسودوبلي[19] يهجّيها عازف البوق الذي تسند يداه بعيداً عن الفم مجموعة أسنان ضخمة من ذهب؛ أصابعه كانت تتحرك كمخالب، كما لو أنه تألم، هو أيضاً، من هذه الآلة، وبدلاً من أن يهمي دفقات أنغام حارة أرسل إلى هذا العالم مفاتيح متحركة.

---

(19) «خطوة مضاعفة»:نوع من الرقص الاسباني.

واتجه الموسيقيون على إيقاع الباسودوبلي إلى أماكنهم، التي تجاور حلبة الرقص لإنعاش التمثيل ومرافقة النمر. كانوا يتقدمون أحدهم وراء الآخر، في رتل هندي، دون أن يتوقفوا عن النفخ ملء أشداقهم في نور مشاعل الخرق والبترول والشحم الساطع.

ربما يهدئ ثورة أسنان مدير السيرك قليل من الكحول في فمه. وهو يحرق في البدء، لكنه بعد ذلك ينوّم الألم. حتى ولو كان ذلك من أجل ألا يجنّ مدة التمثيل.

جلبوا له كأساً من الأجواردينتي. لم يجدوا كحولاً غير أن الأجواردينتي هي نفس الشيء.

وطقطقت أسنانه الذهبية بصوت معدني على حافّة الكأس؛ وكان ماء الحياة في فمه، وشفتاه راجفتين، وخدّه انتفخ في الناحية التي يمسك بها بالسائل الذي بدأ يخفف عنه، وأذناه لاهبتين، ودموع طفولية في العين، حين تراجع كي يدع الموسيقيين يمرّون. ولقد احتكوا به وهم ذاهبون إلى الحلبة، فيما يعزفون الباسودوبلي.

كلهم مليء بالرذائل، شرّيب، وتنبل؛ وكان يكرههم، بخاصة، في هذه اللحظة التي يشحذ فيها الألم احتقاره، فما يستطيع كتمان غيظه أو أن يلاحظ أنه في خطر من قربه من إحدى كرات النار... الخطر... لم يتسع لديه الوقت للتفكير بما لم يعد الآن خطراً بل حقيقة اللهيب البشعة المخيفة وهو ينبثق من فمه فتلعق وجهه.

ماذا حدث؟ انقلب أحد مشاعل البترول والشحم عليه. وأراد أن يجتنبه لكنه تأخر كثيراً، كثيراً جداً. كان فمه يشتعل كما لو أن أسنانه الذهبية صارت جمراً. ركض إلى داخل السيرك، عبر الحلبة، دون أن يسمع تصفيق المشاهدين الذين ظنوا أن هذا المشهد يفتتح الحفلة.

كان يحرك أصابعه بين اللهب كعازف البوق أو ملك الصور يوم الحساب

الأخير. صوت له أسنان حادّة تعض الموتى كي يستيقظوا، ويلبسوا، ويتزينوا، ويسوّوا هندامهم للحضور. وفي هذا اليوم في جوزافا[20]، استعاد مدير السيرك شفتيه، ووجهه، وشاربيه وحاجبيه.

ووقف الهاخاديتو كي يصفق مثل الناس. لكن يديه توقفتا في الطريق. لقد سقط مدير السيرك قريباً منه، دون شارب، دون شفتين، وعريت أسنانه في ابتسامة ثابتة على رأس ميت. أسنان ذهب اكمدَّتْ من دخان، محمرّة، مشتعلة تبدو تضحك ناراً فيما البهلوانات يرقصون على جسده كي يطفئوا اللهب، تمثيلية إيمائية صفق لها الجمهور تصفيقاً شديداً.

وصعدت بهلوانة، لا تدري ما تفعل، في غنج في لباس بحر وردي تتنزه في الهواء من مُعَيّن لآخر، ولآخر أيضاً، وكأنها روح التاعس الذي احترق وانفصلت الآن أجفانه كي تجعل أشد عرياً ضحكة الذهب بلا شفتين.

حتى إذا رجعت البهلوانة إلى الأرض أخرجت محرمة صغيرة من نطاقها المزركش ومسحت عن يديها ووجهها عرق الموت الذي كان واضحاً كدوي نحل أصمّ، أثناء القفزة المثلثة الخطرة.

وعلّقت الحفلة.

وإلى الجهة الثانية من الأقفاص حيث الكواسر تروح وتغدو، وقد هاجها المروّض - دعس وزئير - كان مدير السيرك ينازع بعيداً عن غليونه الذي من تراب، دون شارب، قميصه محروق، وتحت القميص على الصدر الأشعر غدا الشعر الأشقر المحترق رماداً.

واجتمع المشعبذون بعض وقوفاً، وبعض جلوساً، دون حراك، أو يبدلون وضعيتهم، في ضوء سراج من بلور متهالك يهدد بالانطفاء، وكأنهم أعضاء

---

(20) أي بالموت.

عائلة عديدة (الناس، والسعادين، والكلاب والخيل، لم ينقص إلا الكواسر والغجر) يشهدون نزع المسكين دون أنتيلموتاباريني الطويل.

وسكت الموسيقيون. فبعض المسؤولية تقع عليهم. لأن المصيبة وقعت أثناء مرورهم وهم يعزفون الباسودوبلي. وكان رجل البوق، الأفطس الأنف، ذو الوجه المرقط من الجدري، يحكّ براغيثه. موسيقى خفيفة بحروف دهنية يقرؤها لمساً. كان يضم بين إصبعيه، السبابة والإبهام، أكثرها إشباعاً بالدم، نوطات مدورة، دون أن يفوّت ذوات السن، أو ذوات السنين، كومة براغيت دون هدف موسيقي.

والغريب أن الجمهور صفّق، ظاناً أنه مشهد الرجل بالع النار الذي أعلن عنه في صخب عظيم، وهو الشخص الذي يتأمل هادئاً نزع دون أنتيلمو، فيما يخلل أسنانه بعود كبريت.

وبقي الهاخاديتو معهم حتى النهاية. وطلبت ابنة الدون أنتيلمو الأذن بأن تضع لأبيها شارباً مستعاراً. وهكذا يدفن بشارب كما عاش. وبما أنه كان دون شفتين ألصقوه له بصورة ما على الأسنان الذهبية.

واقترب بعض من بعض الخدم المرد، ذوو الشعور المجدولة، واللباس الأبيض، كي يتشجعوا، فقد خافوا من رماد ثيابهم وهم يحفرون، وأقدامهم عارية، المقبرة العائلية حيث يدفن دون أنتيلمو تاباريني بناء على إرادة الهاخاديتو، امتياز هو أول من يتمتع به لأن أحداً من جدوده لم يرض بأن يدفن، واختفوا جميعاً فهم ليسوا من الناس الذين يفسدون الأرض.

## 11

كان يتخيل الهاخاديتو ما تبدو تخبئ عنه الخادمات من خبر أهله وقد فرغوا من الحاضر، فهم ناس دائماً غائبون، دائماً في سفر، دائماً على أهبة

الاختفاء. نعمة تشرّد الرحّل التي فقدها الحضريون. بعضهم سلك طريقاً دون عودة، موازية للموت، كي يقطع كل علائقه مع العائلة، شيء لا يصل إليه إلا من يفرّ أو يموت أو يجنّ. وبعض بقي لابساً الحداد اليوميّ البائس الذي يحيل نتف الوجبات رملاً، وملح الطعام دموعاً والحبّ سأماً وانعكاس ضوء البيت إلى مثاب بئر لا يرقى. كان يراهم الهاخاديتو يختصمون مع عائلتهم، وخدمهم، والأثاث، وظلّهم، الذي في حداد مثلهم، لابساً أسود من القدمين حتى الرأس، دون أن يعدّ الذي يتعارك مع نفسه، في المرايا، يضربها كي يحطم نفسه ويمحو صورته. كان يختفي، يقتل نفسه في المرايا فيحس أنه مات حقاً ويضلّ فيا بعد في البيت كروح تتعذب، وتحيا بعد صورتها، تطوف من غرفة إلى غرفة كشبح.

يا له قاتل الصور المسكين! كانوا يسمونه أزاكوان بسبب بزته التي على سواد مصفر، وشعره المنتثر الملتصق برأسه الصغير ببروكة ريش، ولأنه كان يهاجره شتاء، مثل الحدأة، فيحمل من غرفة إلى أخرى سريره، وطاولته، وكرسيه، وكتبه، ويتطابق الانتقال، مع حطام مرآة ما، شلال تسمّر، ماء من بلور يكنّسها الخدم مثل برد الأمطار الأولى.

كان ينزل أزاكوان خفيفاً كالزمن في الثالث عشر من كل شهر، عند منتصف الليل، من الغرفة التي ما شغلها إلا عابراً، كي يوقد شموعاً صبغت بالأسود فتلمع عليها الشعلات في صفرة أشد، قدّام صورة اللص الشرير، المصلوب الذي جثته هي غاية كل ما يكوّن الإنسان، فهو يبدأ وينتهي في المادة، مهما كان عظيماً وقوياً.

كان يصيح أزاكون وهو راكع قدّام المصلوب المخيف، قائلاً «أستحلفك بموتك الحقيقي أن تغفر لي ضعفي... لا أستطيع النظر في مرآة دون أن أعتقد بوجود شيء وراء الواقع، هو خطيئة، أعترف بها، تائباً. لقد بالغت في إهانتك مراراً لا مرّة واحدة؛ لكنني أعدك، يا أبي، في ألا أجنح إلى حيث أعتقد أنني أرى طرقاً غير التي دللت عليها، في قهقهة محتضر، عندما قدم لك اللهم الجنة».

كان يتكلم بصوت خفيض، وفي نفسه عفن الأحشاء، ورأسه رأس الحدأة يرتعش فيرفع عينيه ناحية صورة اللص الشرير الذي كان يراه بصورة الرقم 13: الـ 1 هو الصليب القصير والـ 3 هي جسد المعذّب المتشنّج.

واستمر قائلاً: أكره لوسيفير. الملاك الغبيّ الذي انقلب إلى الجحيم لأنه أراد أن يكون الله، وأنا أعبدك أنت لأنك، شعرت بشرطك الإنساني، وإثمك في أن تحيا، وتعلقت بصليبك، فرفضت، قوياً بإيمانك أننا مادة فحسب، العرض بملجأ سماوي.

وتابع أزاكوان بصوت خفيض، يهمس من بين أسنانه، وأضاف:

ـ وأنت هنا معلق، مشدود، نهباً إلى ألم الموت الراعب، ولسانك خارج كأنما من أجل لعنة أخيرة، إيماءة من يتمرد ضد القدر الأعمى.

نور الصباح، زجاج سميك، زجاج محروق حال مسحوقاً رطباً، كان يحيط بهالة قاتل الصور النحيل. واستفاق مع النهار كما في مرآة فسيحة، في قصدير عالم لا نهائي، قمر ثابت، وجسّ كل ما هو أكيد في شخصه، دون رغبة في أية جنّة ينجو بها من الحقيقة الوحيدة. التي هي حقيقته ألا وهي جسده.

ـ لا تسمح بأن أضيع صورة في عالم الخيال! اجعلني قاسياً فلا أخرج من عالم الواقع، من الإيجابي، من المادي! لماذا تركتني أضلّ في الوهم، بالرغم من أنك قدوتي؟ أيها اللص الشرير، لقد سرقت بموقفك، هذا العالم الذي لا يخص من يؤمن به! يا قاطع الطريق الذي عرّى مملكة المرايا!

وعمد أزاكوان، وهو يائس، يتأرجح بين التوبة والخطيئة، إلى مهمازين ورمى نفسه وحصانه في رامة الشحاذ فلم يرجع الماء هذه المرّة لا صورته ولا جسمه، فقد منحهما قبراً في مرآته الخفيّة النائمة.

# 12

عندما انتهت جنازة الدون أنتيلمو تاباريني، بدأت الحرب بين ناس السيرك. كلهم أراد أن يكون الرئيس. تمتمات، وشتائم، وغارات ليلية. أخيراً أعلنت المعركة المفتوحة. في الحروب البيتية العادية، يختبئ المقاتلون حسب الإمكانات، وراء الأعمدة، أو الأثاث، أو الأبواب، وتتحول الأدوات التي مراميها سلمية إلى قذائف؛ أو أنهم يغلقون عليهم الغرف بالمفتاح ويدعون العدوّ يصيح ويضرب الأرض بقدميه في الخارج.

أما في السيرك فقد قامت الحرب في البرية الخلاء. فلم يكن لدى المقاتلين في مدى الخيمة الشاسع ما يتّقون به مختلف الأشياء التي يقذف بعضهم بها بعضاً غير ما جمعوه من خشب المقاعد وستائر مداخل الفنانين والجمهور؛ وكانوا في كل مكان معرضين للموت ولولا الخفة التي كانوا يتفادون بها القذائف، لسقط أكثر من جريح خطر منذ أول الأعمال الحربية، لما بدأت المعركة المنظمة.

ولم تكن ساحة المعركة وحدها المختلفة، بل الأسلحة أيضاً.

ولما خرج المروّض عن طوره، لأنه لم يحصل على طاعتهم، بعد أن نودي به خليفة لدون أنتيلمو تاباريني، أعلن أنه سيفلت الكواسر إذا لم يصغوا إليه.

وصاح بصوت بوق، وهو يتحاشى الأشياء التي يرمي رأسه بها ناس السيرك، وبعضهم بقوة كانت لولا قليل تفلق جمجمته الملأى بمغامرات صيده في أفريقيا. قال: ـ هكذا تضطرون للاعتراف بحقوقي في الحكم... إما سلطتي كرئيس أعلى أو الكواسر.. الكواسر والسوط!

وأخذ يصطفق في كل الجهات السوط الحانق ترفعه اليد التي غطاها حتى النصف ردن بزّة الحفلات المذهب.

واقتربت آنا تاباريني، بنت الدون انتيلمو، وهي نصف عارية ـ فاجأها

التهديد وهي عارية - وتصنعت أنها معه، فارتمت، وهي تلبس أكمام مبذلها[21]، بين ذراعي المروّض الذي خال أنه يضم بنفس الوقت السلطة والحب، فانتزعت السوط وزرعت أسنانها الكاسرة في أذنه، وهي تهدد بقطعها جميعاً إذا لم يعطها مفاتيح الأقفاص.

وحال المشعبذ البائس، من قرمزي غضباً، إلى بنفسجي حتى رأس شعره المحلوق فرشاة (بروس) لونها برونز مذهب؛ لقد جعر ألماً هو الذي عضته من قبل كواسر حقيقية - كانت عضة تاباريني الهائجة، الهستيرية تجذم الغضروف أكثر فأكثر - غير أنه لم يدع المفاتيح التي قبض عليها بمخالب أصابعه.

واستولى عليها في خفة البهلوان خوان تاركو وأخذ يعدو، يلاحقه أسود طويل رهيف كسمكة انقليس[22] اكتشف أن المفاتيح أصبحت مع البهلوان وقرّر أن ينتزعها منه كي ينادى بها رئيساً؛ وكاد يصل إلى هذا الأمر لو لم يفلت خوان تاركو من الصراع جسماً لجسم بأن قطع الحلبة ونجح في الصعود إلى إحدى الأراجيح على حبل كان ينوي أن يسحبه عندما يصل إلى أعلى؛ لكنه تأخر فقد أخذ العبد يتسلقه وهو يلاحقه في سرعة كبيرة.

ودون أن ينتظر البهلوان تضييق الخناق عليه رمى بالمفاتيح إلى آخر من جماعته، صديق بنت تاباريني، الذي كان خلف مقاعد الرواق، وكان يطلبها منه في حركات واسعة وصياح عظيم. واجتازت رزمة المفاتيح فضاء الخيمة في رنين شهاب، أو كضربة مثلّث[23] في وسط أوركسترا آلات الإيقاع، نوطات نحاس وكريستال يتحطّم.

جماعتان. كانت جماعة آنا تاباريني تدافع عن المفاتيح كي تتفادى أن يفتح المروّض الأقفاص على الكواسر الجائعة ولا يعمد إلى هذا التهديد المخيف من أجل أن يجبرهم على الاعتراف به رئيساً أسمى.

---

(21) Robe de chambre.

(22) بالعامية حنكليس.

(23) آلة من آلات النقر الموسيقية مثلثة الشكل.

هل كانت النمرات القلقة، الغضبى والأسد تتنبأ بأن الأمر يتعلّق بمصير حرّيتها ووليمة مشعبذين؟

كانت على كل حال، تنبأت أم لا، تمشي طولاً وعرضاً، كأنها مسحورة، وعيونها ملأى بحزن بارد، تحفز مشيتها المبطنة بأسواط أذنابها.

كان المروض أجهدته المعركة مع المشعبذة، المرأة بلا عظم، التي لا يمكن الإمساك بها كلسان يتحرك؛ فوضع يده الشاحبة على أذنه المعضوضة وقد أحس بها متصلّبة لاهبة، وكأنها ليست ابنة دون انتيلمو تاباريني، بل هو نفسه عضه بأسنانه التي من جمر ذهبي.

كانت المفاتيح تروح وتغدو؛ وفي أوج المعركة ظهر سعدان في سمت قبة القماش الفسيحة، في المكان الذي يسند فيه الصاري المركزي كل شيء، حيث قذف أحدهم، بحركة يأس، بالمفاتيح، عله يضعها بعيداً عن متناول الجميع.

استولى عليها السعدان. وتسمر المتقاتلون، على أهبة الفرار. كانوا يخشون أن ينزل الحيوان ذو الذنب الطويل، في سرعة ثمرة تسقط، حتى الأقفاص فيفتحها. غير أن هذا، كان، في تكشيرات مهرج مضحكة، يحرك المفاتيح بحذو رأسه، كي يسمع رنّتها المعدنية. ويطلق صرخات من المقام الحادّ، وهو يبحث عن العبد بنظره.

وصفير؛ ثم ترك السعدان نفسه يتزحلق من أعلى الخيمة عبر المراجيح، قبل أن يستفيق الآخرون من دهشتهم، حتى كتف صديقه اللامع البرّاق من ظلمات.

ووضعت يد سوداء، صغيرة، شعراء مفاتيح الأقفاص في اليد الأخرى السوداء، أكبر من تلك وملساء.

طلبت آناتاباريني والبهلوان هدنة.

ونادى العبد الذي من جماعة المروّض بصرخات كبرى: إدنة! إدنة! إدنة لي أنا أيضاً!

وندّت عنهم جميعاً تنهدة عزاء لما سمعوا العبد يقبل بالهدنة. ونفخ المروّض جذعه في أبهة زيّ الاحتفالات المهانة ـ جعلته العضّة أطرش ـ وطلب المفاتيح من الأسود، غير أن هذا، والسعدان مازال على كتفه، رفض أن يسلمها له.

ـ إدنه! إدنه! مفاتيح إلي! أتفلها للجميع![24].

وهاجم المشعوذون الصينيون، حلفاء تاباريني، بقيادة المرأة ذات الذقن، فقذفوا عيون خصومهم بقبضات نشارة ورمل.

وارتمى المروّض ومؤيدوه على بطونهم. وسحجت كرة بيضاء رأس الرغوة السوداء لمالك المفاتيح السعيد ومست البهلوان في طريقها ثم تحطمت على خد المروض الآري في اللحظة التي كان يرفع فيها رأسه كي يرى هل انتهت غزوة الصينيين ذوي الجدائل الشبيهة بجدائل خدم الهاخاديتو.

وصاح العبد، ومازال السعدان على كتفه: «إدنه لا! ولأنه هكذا سوف أفته (أفتح) القفص».

ونهض المروض، والألم في أذنه والنشارة في عينيه، مصمماً على كل شيء، يرتجف ويريل غيظاً.

وحزر العبد نيته فاستحوذ على السوط الذي كان مرميّاً أرضاً.

وشلّتهم جميعاً ضجة طراد خيل. فرسانها يبدون قوزاقاً يمتطون خيلاً من نار. وفرغت الحلبة. إنها لفظيعة رفسة الحوافر المحدية للدواب العادية، وربما مميتة بهذه السرعة.

وأصيبت ذات الذقن التي حملت جنسها على وجهها وأغمي عليها.

وأنّب المروضُ الأسود دون أن يقترب منه كثيراً خشية لسعة سوط. قال:

---

(24) يقلد المؤلف لغة العبيد: هدنة تصبح إدنه ثم خطأ في الجملة وأتفلها بدل أكفلها.

«بيسبيس يا خائن، يا ذا الوجهين، يا قاطع الطريق، يا ملعون، كنت من جماعتي وخنتني في اللحظة الأخيرة!».

ـ بيسبيس لا يكون (يخون) يا مروّد (مروض).

ـ من إذن؟

ـ إذن، اسرخ يا مروّد: بيسبيس رئيس كيّس، رئيس الكل رئيس السيلك، رئيس! العبد بيسبيس رئيس بالراء مثل رأى، لأنه رئيس!

وهتف أعوان آنا تاباريني ببيسبيس رئيساً للسيرك. وأحاط به المشعبذ خوان تاركو، والصينيون وآخرون دعماً له. وكان المروض والقوزاق نفساً واحداً لاهثاً، لا يستطيعون الخروج من هذا الكابوس. ضربات قوائم الكواسر. زئيرها كعاصفة بعيدة. ولجأ الهاخاديتو إلى أعلى مكانَ في البيت كي يجمع ما هو أشدّ لمعاناً في الليل لبزّة حداده.

# 13

أثر الدم حتى الرواق. كان سوريلو جريحاً. سوريلو الصياد المشوّه الذي كان يحضّر الطعوم للسنارات. أمعاء مفرومة وقطع الأحشاء، التي يبتلعها أحياناً ضاحكاً، رائلاً، عاطساً ذباباً. كان الشعر ينمو غزيراً على رأسه فيأكل كل وجهه تقريباً. إنسان بلا وجه. رأس فحسب. بلا رقبة أيضاً. جوزة هند شعراء التصقت مباشرة بجسمه، ذي الكتفين، في صورة جنيحي سلحفاة. الذراعان جدّ طويلتين، الفخذان جدّ قصيرتين. العينان فقط. عينان سماويتان حادّتان، حادّتان في وسط الجلد. يريدون قتله، إذا لم يتدخل العبد بيسبيس وقد غدا سيّد السيرك.

سوريلو، كان وحده ضدّ كل من في السيرك، كان، دون أن يُرى أو ينحاز، يرميهم بمقلاعه الكبيرة ذات الحبل بحجارة وقبضات تراب جافّة؛ قنابل حقيقية. كان يرى الخيالات وراء الخيمة ويصوّب إلى أي كان منها.

أول من جرح كان صينياً إنهار. لم يستطع ناس السيرك، وقد أذهلتهم معركتهم الداخلية، أن يتصوّروا أو يحزروا أن هذا الهجوم المعاكس أطلقه عدو خارجي. وفيما كبرت الكدمة على رأس الصيني الذي كان يكرر: ـ كدمة، كدمة ـ وهو يروي ما بين فخذيه لشدّة ارتفاع حرارته خوفاً، ويظن أنه يحسّ أن كرة التراب بقيت تحت جلده، كان أحد المشعبذين يركض، ويثب، حجلاً، مثل طويلة الساق[25]، وقد تحطّم كعبه.

ودون أن يضيّع سوريلو وقته سدّد بدقة أكثر وأصاب ظهر التاباريني. اصفرّت البهلوانة، وألمّت بها حركات عنكبوت مجنونة، ثم أغمي عليها.

ورآه أحدهم، كلهم، والمقلاع بيده، وبوزه لاهب، وعيناه زائغتان يغضّن ويبسط قناعه الأشعر. ولم ينتبه سوريلو، في حرارة المعركةَ الطفولية، إلى أنّه خرج من مخبئه وأخذ يهاجم مكشوفاً.

دافع عن نفسه ببسالة. وانتشر مهاجموه في حرب أنصار واقتربوا منه لدرجة باتت معها المقلاع دون رفد؛ فأخذ يقذف حجارة باليد، باليدين. فطري، بهيمي. قلبه حصان قوزاقي. وهمّ به كل ناس السيرك. ضرب عصي، وأقدام، وقبضات، وسوط؛ ولقدكانوا انتهوا منه لو لم يصل الأسود بيسبيس في الوقت المناسب. كانت مفاتيح الأقفاص مع بيسبيس وسوط المروّض وكان الرئيس الذي اعترف به الجميع.

مدّت آنا تاباريني يدها الشاحبة المتجلّدة إلى ظهرها دون أن تستطيع الوصول إلى النقطة المؤلمة، البعيدة، من الرئة، وطلبت من المشعوذ وهي تفهق وتبكي كيتيمة، أن ينهي سوريلو. خوان تاركو كان أضراهم واضطر العبد للتهديد بفتح الأقفاص إذا استمر على ضربه.

واستطاع سوريلو أن يفر في حماية بيسبيس والسعدان ويلتجئ إلى الرواق الصغير.

---

(25) طير مائي.

يوم مدوّر؛ هذا الإحساس بالاتساع المدوّر الذي يعطيه النهار إذا نظرت إليه من سطح كتلة ماء محصورة بين الجبال، مثل رامة الشحاذ.

ولقد ظلّ الصيادون، مثل الخدم ذوي الشعور المجدولة، غرباء على معارك الراقصين، ورموا شباكهم من قواربهم، صامتين يتأملون؛ الرؤية الطويلة للماء جعلتهم حزينين.

على شواطئ الأرض الحمراء المعتمة، تراب من دم، كانت جماعات من النساء تغسل الثياب في حركات من غيم، ثم تنشرها وتبدأ بجمع نباتات جيلاتينية، تفيد في احتدام الدم وبرد الروماتيزم، وأصدافاً لامعة يصنعن منها عقوداً، أو أحطاباً صغيرة جافة لتسخين الطعام. بعضهن كن يحملن أطفالهن على ظهورهن، وبعض يمسكن باليد من كان يمشيَ منهم. منذ وصول السيرك نزل الصيادون إلى البحيرة، وأخذوا معهم نساءهم، وأبناءهم والكلاب، خوفاً من أن يدعوهم بلا دفاع، فتهرب النمور أو النمرات أو الأسد الذي زئيره هو الأقوى، فتأكلهم جميعاً في غيابهم.

ذلك المساء، بعد عودتهم من المستنقع، تحدثوا عن سوريلو، تحت سقوف أكواخهم. كان تفسيرهم للأحداث مختلفاً. كل امرئ في هذا العالم، يصنع حقيقته الخاصة. لقد أراد ناس السيرك أن يستولوا على الأبله المسكين كي يرموا به طعاماً للكواسر الجائعة، وقد دافع البائس قدر ما يستطيع عن نفسه، بأن قذف الحجارة بمقلاعه، ثم بيده، ولو لم يتدخل بيسبيس لجرّوه حتى الأقفاص فكان وليمة للنمور والأسد.

في اليوم التالي لجأ الصيادون وعائلاتهم إلى البيت الكبير، الذي يتجاوب فيه الصمت، فكانوا في حماية اللص الشرير والهاخاديتو.

واصطف الخدم المجدولة شعورهم تبعاً لكبر الضفيرة، بدءاً بأطولها حتى أقصرها، واستقبلوا على درجات سلم الهاخادوس الصيادين، ونساءهم وأبناءهم وقد تبعتهم كلابهم، وحيوانات زرائبهم، وببغاواتهم ودرّاتهم وأراتهم[26]. لقد

(26) ببغاء برازيلية.

تركوا في موكب حلم خيامهم الفقيرة التي من قصب. أرعبهم زئير الأسد. فأتوا يقطنون ويشكون للهاخاديتو خطر جوار تلك الحيوانات الافريقية ويشفعون بأجسادهم اللص الشرير الذي ناموا قدامه في الكنيسة الكبرى بصمت عظيم؛ والشفاعة من حظ أقلّهم ضجة وأكثرهم إيماءات تسبيح للمصلوب المخيف.

كان مساعدو الهاخاديتو ذوو الضفائر ينظرون إلى نساء الصيادين. يتخيلون الكواسر تأكلهن لقماً كبيرة وتمزقها بضربات قوائمها. وما كانوا يتوصلون للتفكير بما يسمعون ـ شكوى ونحيب الصيادين وهم يطلبون الملجأ عند الهاخاديتو ـ فقد كانوا مشغولين بالتذوق في لذة فكرة إِن النمور والأسود لن تكون هي التي تقتسم هذه الإناث اللابسات الخرق اللائي تندّ عنهن رائحة السمك، بل أنهن سوف يرمين إليهم، عاريات، في غرفهم.

وبعد أن صلى الصيادون إيماءً قدام أب أجسادهم، كما كانوا يسمون اللص الشرير، دون أن يعطوا هذه الكلمات من الفخامة أكثر مما تقتضيه المقاطع، أقسموا بالانتقام لسوريلو.

ـ نقسم على ذلك باسمك، يا أبانا المقدس يا نافيَ الروح!

وقبلوا قدميه اللتين أظافرهما معقوفة. ملوية تحت الحبال التي تشدهما إلى الصليب.

وأجاب الصيادين أكثر الخدم رسمية بعد أن جلب الضفيرة على صدره كشرّابة شارة مقدسة:

ـ إذا حاصرتنا الكواسر، النهمة إلى لحم بشري، فسوف نبدا بأن نرمي لها الرضع، ثم الأطفال، وبعدهم العجائز، ثم النساء وفي آخر مقام الجرحى؛ وهكذا يستطيع المدافعون عن البيت أن يقاتلوا حتى آخر رجل.

حين انتهى من كلامه أرجع ضفيرته إلى ظهره.

وقفز الصيادون كي يجعروا عدم موافقتهم بـ «لا!» كبصقة ضفدع.

وأغلق صاحب الضفيرة عينيه. وأخذ رفاقه النهمون ككواسر يطاردون النساء؛ رجال بأذرع أربعة، اثنان حقيقيان واثنان ضفيرتان تنتصبان بحركات ملاقط سلطعون.

في الأروقة والمطابخ، وأبواب العربات، والأدراج والممرات، والفناءات المنعزلة، والغرف البعيدة... في كل مكان، كان الرجال ذوو الجدائل، والجلود التي تآكلت من السنين، يطاردون، وهم يلعبون بالمستخباية، النساء ذوات الانحناءات الشهوانية؛ صوت وسط بين كردحة الجرذان وزفير القبس المشتعل، وكأنه أثاره سيلان اللحم على المشواة.

وكانت تتراجع النساء، وتختبئ، وتتفرّق مثيرة مجرى هواء وبائي؛ كتل من خرق، وأيد، ووجوه، وشعور، ووسخ، وقلق، وخوف، لا تدري، بعد أن تركهن أزواجهن وذهبوا للصيد، من تخشى أكثر، الرجال الشبقين ذوي الضفائر كالرقاق، أم كواسر الأقفاص التي تلهث وتنضح عرقاً.

يوم آخر مدوّر. الكواسر المذهّبة، اللماعة، التي تزبد مشافرها، مشغولة بتنظيف أنيابها، وشحذ مخالبها والتوضؤ في آنية جدّ صغيرة دائماً تقدم إليها للشرب.

- سوريلو! سوريلو!

هزّ الهاخاديتو، في الرواق الصغير، ذلك الكائن البشري الذي يشبه دمية، واللابس الخرق الدامية. قضى سوريلو ليلته هناك. كان يدور ببؤبؤي عينيه السماويين في قرنيتيهما، وكأنهما ينتسبان إلى آخر، - كان شديد السمرة - آخر سجن في هذا الجسم المشوه عقاباً له، وجهد، حين استفاق، أن ينحني علّه يعرف ما يحدث.

لم يكن يشكو من رضوضه وجراحه قدر شكواه من ضياع المقلاع، وهو يحرّك دون انقطاع بؤبؤيه الكبيرين المضطربين في نصفي بيضتين، مبيضتين خارجين من جفنيه.

أية جنة يوعد بها المعذّب، غير هدوء ألمه؟ كان صوت الغريزة يسمع من كل جسده وما جسده غير جرح.

الجنة هي حيث، كل ما هو إنساني لا يؤلم، ولا أهمية له، والجحيم هو حيث كل ما هو إنساني يؤلم، ألماً لا نهائياً.

كان سوريلو يتأوه، وقد تمدّد بطوله في الرواق الصغير، ووجهه التصق بالجدار، والذباب يلتهم دم جراحه كعسل ملوّن.

واقترب منه الهاخاديتو وقد نسي جدوده العمليين الوضعيين، الذين لا وجود عندهم إلا للمادّة فقال له:

ـ سوريلو، غداً سوف تكون في الجنّة!

## 14

ـ آنا تاباريني يكنّس وعبد لا ملعون، عبد يكنس أيضاً!

ـ لا يابيسبيس، الرؤساء يكنسون برؤوسهم، وتلك مكنسة أكبر وأفضل كثيراً!

ـ إذن لما العبد الرئيس مبسوط، يكنس بالمكنسة أيضاً، لا بالرأس.

ـ إذا كان العبد يريد أن يساعدني، فالأفضل، بدلاً من أن يكنس، أن يأتيني بهذه الشبكات الملأى بإبر الصنوبر.

ـ العبد يمكن يأتي بإبر الصنوبر بلا شبكة؟ لا، مع الشبكة أحسن، أسهلو.

وراء العبد الذي كان يجرّ شباك الصنوبر، التي حجمها كبير ووزنها قليل، كان البهلوان خوان تاركو يقترب وقد ملأ حضنه برؤوس قصب السكر وأغصان زهراء كي تزين السيرك الذي زخرفوه كما ليوم عيد تقرع فيه الأجراس.

ـ هفلة مهرجان، يا بيسبيس!

قالها المهرّج وهو يقلد الأسود الذي كان لا يستطيع قولة حفلة.

كان يسبيس وهو يجر الشباك يضيّع في الطريق نصف إبر الصنوبر التي كانت تنتشر على الأرض.

صاحت تاباريني: «بيسبيس يبعثر الصنوبر...»؛ كانت تلبس بلوزة بيضاء، وبنطال ركوب خيل أزرق غامقاً، ووشاحاً بحمّصات[27] حمر حول العنق ومشطاً في شعرها المبلل.

- عبد يجمعها بعد... يذهب ليجمع...

كان المروّض يلمع زينته لحفلة المهرجان. القبعة العالية، الجزمة، وبقية العدّة. كل شيء كان يلمع تحت الشمس السَاطعة. كان ينفخ خديه، وهو يصقل جزمته، كي يبصق فيلمع بمرح زينته الباذخة المبرنقة بأزرارها اللامعة.

كان صينيو ألعاب الرشاقة، وهم الآن طبّاخون، يكسرون بيضاً للغذاء فيما يُشوى اللحم ويتصاعد من شوربة السمك بخار له رائحة مستنقع. كانوا يتكلمون بالصينية أو كما يقول يسبيس «بالخنزيري» لأنه لم يكن يفهم شيئاً. كانوا أحياناً يضحكون فيما بينهم، وأحياناً يسكتون كأنهم يصغون للهواء. كانت عظام أكبرهم سناً تطقطق. كأن مفاصله تتكلم بالصينية. محادثة بين المفاصل تحت الجلد. كان وجلاً؛ أقل شيء يدفعه لجمع كتفيه. نظرته المنحرفة، وخجله، وشفتاه الرقيقتان، وشعره القليل، شعر الدمية وكأنه نافورة ماء على الرأس، كانت كلها تجعله مختلفاً مستحيل إلا وأن تميز بينه وبين الصينيين الآخرين المتشابهين، كلهم متشابهون، يشبه بعضهم بعضاً شبهاً مطلقاً.

- رافائيل؟...

كان في فم المروض ماء، من مرق الغذاء اللذيذ، جعل كمية اللعاب أكثر مما يقتضيه تلميع عدّته. وأجابه الصيني رافايل بعظامه وهو يلتفت إليه. قالت مفاصله شيئاً مثل: ماذا تريد؟

---

(27) يعني دوائر صغيرة.

قال المروض: «يا رافاييل ـ وهو يبتلع اللعاب الذي لم يبصقه عند قدم الصيني ـ هل سوف يصبح الغذاء جاهزاً؟».

ـ انتظر قليلاً...

كان العبد يجمع إبر الصنوبر التي فرش بها الأرض وهو يجرّ الشباك، فيما يربط خوان ثاركو حزم القصب ذات الريش الخضراء الأنيقة في مدخل الخيمة قريباً من العصي السوداء من الشحّار التي تعلق بها كرات الخرق المبلولة بالشحم والبترول. وكان يضع، فيما عدا القصب، أعلاماً صغيرة من كل الألوان.

وجاء السعدان يعين بيسبيس في جمع إبر الصنوبر. وكان يطلق صيحات حادة، قاطعة، لا تطاق.

ـ هفلة مهرجان لا للسعدان الصغير! هفلة مهرجان لأجلي أنا، الْعْبت بيسبيس، الرئيس! هفلة مهرجان للرئيس!

وقفت آنا تاباريني، ويدها على المشط، المشط الذي في الشعر، كي تتأمل الزوج الذي كونه السعدان وبيسبيس. أخَوان. ولعب الصيني ـ محادثة هيكل عظمي ـ عدة نوطات حادة كي يعلن عن استراحة. وتعهد المرح أثناء الغذاء العبد والسعدان. الآخرون كانوا يمضغون وقد انحنوا جميعاً على صحون الرز وشوربة السمك. وصهل حصان. الذباب كان يصر في الظهيرة الحارّة. والكواسر تزأر، وقد صعقتها الحرارة، وتنام. ربما كانت تحلم بهذه الأغذية الوفيرة. والآخرون جميعاً يمضغون، وقد انحنوا على تلال، صدور وأمعاء ساخنة. إن ما يؤكل حيّاً يبقى حيّاً في الجسد ولهذا يجب أكل الكائنات تقريباً حيّة، والحياة تنسرب من أوقابهم...

أحداً ما كان يصغي لوعظ رافاييل الفلسفي. السعدان كان يضع يده التي كأنها في قفاز شعر أسود، في صحن الشوربة المذهبة التي تسبح فيها عيون السمك، صحن بيسبيس. كان يُخرج من قاعه، على أطراف أصابعه النحيفة المعقوفة، قبضات رزّ يحملها إلى بوزه ثم يبصقها. وزعل الصيني، حين رأى السعدان يبدّد الأرز.

ـ إذا لميت (رميت) الأتل (الأكل)، يا سعدان صغير، عبت رئيس يزعل!

كان ناس السيرك ينسون، شفقة واحتقاراً لأنفسهم، أن العبد هو رئيس الشركة ولهذا كانوا يزعجهم ولا شك، سماع الصيني رافاييل يذكرهم ببؤسهم.

وتدخل بيسبيس فدعم الصيني الذي كانت تسمم حياته طريقة الأُكل بأربع أيد.

ـ العبت رئيس، أنت سعدان صغير نائب رئيس إذا لم تبدّد رز.

كان «الحنك» مريضاً، فلم يحضر تتويج خليفة الدون أنتيلمو تاباريني، أما الآن وبعد أن ذهبت الحمّى، فهو يتجوّل وقد نهشه جوع النقاهة وامتلأ ضغينة ضد رفاقه الذين سلموا بأن يملي عليهم بيسبَيس نفسه رئيساً. كانت أسنانه تصطك كلما فكر في الأمر، في صوت طقطقة سدّ. ولقد بنى دبّور دمّلاً على رقبته رقبة ثور بشري عريضة وقصيرة. كان يحك رقبته وأذنه كمارد. حمل كرسيه بين أسنانه من أجل الغذاء. على الكرسي صندوق ـ كان يخاف أن يسرقوا أشياءه ـ وفوق الصندوق حجران ضخمان كي يدافع عن نفسه، إذا جاء أحد كي يطلق الكواسر.

كان الصيني رافاييل يرى إلى الحنك يأكل وهو يرتجف. هيا بنا! فلنذهب! كانت تصيح به عظامه عظام الإنسان على صورة حسك سمك.

وحدهما «عظما الكتف» كانا في أمان، هناك وراء. وكان يفرّ لولا أنه خبأ في ثوب وسخ قشة من عشب التيبت. فإذا هاجمه الحنك أخرج هذا الطلسم من الكيس الصغير المنسوج من شعر الرهبان فشلّ الآفة، وحوّله إلى حجر.

وحين انتهى الغذاء انحنى بيسبيس، بصفته الرئيس الأعلى، كي يعطي إشارة البدء بالعرض الذي يمرّ بالقرى القريبة من رامة الشحاذ كي يعلن عن حفلة المهرجان التي تقام على شرف قيصر الظلمات والأبنوس خليفة الدون أنتيلمو تاباريني السعيد.

كان البهلوان خوان تاركو، يسير أمام الجميع، في الطليعة قدوة[28] على حصان بلون القرفة، بلا ركاب، وقد تدلى في الفراغ حذاؤه المصبوغ بالذهب. ومن بعده آنا تاباريني على فرس سوداء أطلقت لها العنان، ولبست ثوباً من الشاش الشفاف الأصفر مزيّن بنجوم حمراء ومذنّبات سوداء ومشى في ركابها أربعة صينيين صعدوا على طوالات[29] يرتدون ثياب وجهاء الصين بلون الزعفران المذهب، وبناطيل بنفسجية، وجوارب سوداء، وقد رشوا عليها جميعاً مسحوق طحين الأرز كفئران مطحنة، وشعرهم من حبل أسود وأسنانهم ضحكتها اصطناعية؛ الضحكة المغتصبة لمن يُري أسنانه لطبيب الأسنان، أو أمام المرآة. و«الحنك» يسير محنقاً، متنكراً في زي ألمانية، تلحق بها غيمة من أطفال يجربون الاقتراب منه كي يلمسوا مؤخرته التي جعلت من مخدّات عملاقة.

ـ يا لأستها! يا لهذه الأست!... كان يصيح الأطفال فيما يقفز السعدان الذي يرافقها في العرض من كتفها الذي ككتف البهظم[30] إلى قفاها المستعار.

كان أكثر الموكب وقاراً، البهلوانات والجمبازيون والألباني بالع النار. كان البهلوانات في ثياب العرض التي بلون الجسد تشده فتبدو تقاطيعه، فإذا هم فراشات فقدت أجنحتها في طيران الموت من أرجوحة؛ إلى أرجوحة؛ وكان الألباني يدخن ويأكل سيكارته ويدفع المرأة بذقن التي يخرج ذراعاها من عنقها. وتنتهي المسيرة بعربة الموسيقيين القذرين الجائعين كنبلاء جاؤوا بهم إلى المقصلة.

وترك بيسبيس نفسه يسقط على الأرض بقسوة. فهو وقد أحس أنه مالك وسيد السيرك أراد أن يمجد هكذا لذته كإله عبد. كانت تهتز تحت جلده الذي لمع بأجمل برنيق، طبول صخب غامض مُدَوٍّ. كان كله تام ـ تاماً واحداً. كانت ترقص القبائل. تام ـ تام! تام تام! تاجه الذي من فواكه وصولجانه الذي من زهر. زئير الكواسر. تام تام! تام تام! تام تام! وتنبثق من جفنيه المحدبين

---

(28) الضابط الذي يتقدم عرضاً عسكرياً.

(29) عكازات يسير عليها البهلوانات.

(30) حيوان منقرض.

قرنيتان بلا بؤبؤين ومن شفتيه وقد عضتهما أسنانه الراجفة خرج نوع من النبوءة الباكية.

الحب يلخبت (يلخبط) الأوراق!

الحب يلخبت الأوراق!

الوحل غزير

الطين غزير!

## 15

بدأ الليل يفرغ منذ أن خرجت النجوم. حوض مليء ماء أزرق أسود. ومصاريع صغيرة من ذهب تدع الظلّ يفرّ، قليلاً قليلاً؛ وحين لات نجوم بنيران الأكواخ أو نيران سانت إيلمو، أو النيران الخضراء، التي تنطنط أو نيران عظام الموتى.

كان بيسبيس، في جوّ النور الأسود هذا، يشاهد من على عرشه، وهو حدّ الهاخاديتو الذي يحرسه رجلان بضفائر، أرضية، حفلة المهرجان العظيم التي تقام على شرفه ولمصلحته. كانت عينا خليفة الدّون أنتيلمو تاباريني تخرجان من محجريهما كي تحيطا بالمشهد. كانت الموسيقى تنفخ أذنيه. كان كله ممتلئاً بالناس، والأنوار، والأصوات؛ وإلى جانبه رداء من وحدة وصمت يحيط بالهاخاديتو الصغير وجفناه نصف مطبقين يقرضان بأهدابهما الحريرية ما يريان وما يتذكران.

- انتبه أيها السيد الصغير إذا نمت حملك بيسبيس!

كانت آنا تاباريني تركض من طرف الساحة إلى الآخر، على طول البسط التي تكوّن طرقاً بلون أحمر بنفسجي، حثالة الخمر، على طابة زرقاء تغطيها نجوم مذهبة إمحت من الاستعمال، وهي تحرّك قدميها الصغيرتين كجناحين من لحم ودم، وبيدها زهرة قرمزية.

ـ جنيّة... انظر أيها السيد الصغير!... يجب أن تسألها شيئاً أيها السيد الصغير، شيئاً ما يعطي دراهم، قطعاً! جنيّة أعراس العالم!

كانت آنا تاباريني بجسدها المرسوم في عباد شمس المايوه، وزحمة البرق، ونجمة كتاج على جبينها المليح، تستمر في دحرجة كرة العالم ـ كان بيسبيس يقول «عرس» العالم ـ وتنزلق النجوم تحت باطن جناحيها الورديين. فكر الهاخاديتو، أنها تذهب هكذا، كما على درّاجة، في السماء، والنجوم دواساتها.

ـ ألا تطلب شيئاً يا ولد! العَبْت يفقد تاجه إذا جنية عرس العالم. لا تعطي دلاهم، عملة... افتح جيّداً عينك يا سيّدي الصغير!

ـ أريد أن تأتيني بدرّاجة...

ـ يكفي أن تتكلم، هي ذي!

وأرفق بيسبيس جملته بأن خط دائرتين برأس أصبعه تحوّلتا إلى عجلتين. ثم رسم مثلثاً وقرنين للمقود.

ـ لا يا عبد، لا أريد درّاجة كهذه... أريد دراجة يكون لها بدل العجلتين، كرتان زرقاوان مثل كرة العالم، وعليها نجوم مذهبة، كثيراً كثيراً من النجوم!

ـ ما عليك إلا أن تتكلم، هي ذي.

ومحى بيسبيس في إيماءات مجذوب، باليدين، والعينين والأسنان العجلتين بإطارين من دخان، دخان كرات البترول والشحم التي تحترق على باب السيرك، ووضع كرتين بدل الدائرتين في دراجة الهاخاديتو.

ـ أريد أن أتنزه مع الآنسة...

ـ ما عليك إلا أن تتكلم، هي ذي!...

كانت كل أوامر بيسبيس تنفذ في الثانية، فما أن قال هذا، حتى كانت آنا تاباريني تغلّف الأمير الصغير بموسيقى معطرة؛ وما كان يراها لأنه سافر في

قلب جسد آنا تاباريني. والذين ينزلون مثله، إلى العالم الحميم لكائن ما، يدهشون إذ يرون نوعاً من لوحة التشريح: الرئتان، والكبد والرغامة... كان الأمير الصغير يسمع في جسد التاباريني ما لم يسمع من قبل أبداً. إن ظاهر جسد امرأة لا يدعك تحزر ما يخفي. كان الهاخاديتو وقد اتحد بآنا تاباريني يفرّ على درّاجة من عالمين لازورديين في صورة عجلتين. كان يفرّ من سوريلو الذي يلاحقه ببؤبؤ من نسيج سماوي.

توقفت التاباريني، أو دفعت بالأحرى إلى وراء كرة العالم العظيمة وخرج هو، بفعل المقاومة السلبية، من العالم المدوّر المقذوف كحجارة سوريلو. كان بيسبيس يمسك بيديه السوداوين يد البهلوانة البيضاء... ومدّ الصيادون شباكهم في عمق الخيمة. علقوا ذبابة عاصفةٍ على كل عَقدة شبكة دون علم المشعبذين، وعندما رفع طيران عاصفة الذباب الشباك الممدودة وقعوا جميعاً مساجين.

كانت التاباريني أول من وقع وكرة العالم في الفخ. حركت ذراعيها بإيقاع موجة، كما لو أنهما اختلطا بشعرها، شعر جنية بحر شقراء، دون أن تستطيع تحرير نفسها، بل إنها كانت تلتف كل مرّة أكثر؛ وأخيراً رفع الصيادون الشبكة، وتركوها معلقة في الفراغ، بلا حراك، سجينة، محرومة من العالم الذي كانت تدحرجه.

وانتهى المروّض، بعون الصيادين الذين كانوا يطالبون بعقاب المعتدين على سوريلو، إلى امتلاك إدارة السيرك.

كانت آنا تاباريني، معلقة في شبكة، دون قدرة على الحركة، والأسود بيسبيس في شبكة أخرى، يتأرجحان على نور مشاعل الخرق والبترول والشحم. وأُتيَ بالكواسر إلى وسط الحلبة كي يمجدوا بحضورهم الإمبراطوري نصر المروض الذي كان يلسع العبد بضربات صغيرة من السوط الذي يستخدمه عادة في ترويض الأسود. واحتفل مدربو الخيل بأجمل ألعابهم. ورفع السعدان بفلسفة، وعناية ذيله كي يجلس.

وتباكت آنا تاباريني: «نادر!» من شبكتها الشائنة التي على أهبة احتراق تهددها في خطر كرات البترول التي تبصق ذهباً من لهب ودخان. «نادر!»... وشعرها انتشر في فوضى على وجهها؛ وعيناها، عينا يمامة تضرعان.

كان الأسد يسمعها فيحرك رأسه الأشعر، ويجهد في أن يحدث كسوف الشمس بإسداله في بطء على بؤبؤيه جفنيه، المتعفنين من النعاس ويزأر: ـ نادر!... نادر!...

وكان يضحك منهما المروّض، وقد وضع جزمته على ظهر الكاسر، وإلى جانبه «الحنك» يضحك ضحكته المربعة من أربعة صفوف أسنانه الفولاذية.

ـ آه! آه! أوه! أوه! أوه! بيسبيس والبلهوانة وقد تحوّلا إلى طائرين داجنين...!

## 16

ولد نادر كوستوديو في عرين من منطقة جبلية قليلة الارتفاع في العصر الذي انقطعت فيه الأرض المعروفة عن أن تسمى إمبراطورية ديوكليتيان. كان صغيراً، حسير النظر، إذا وقف على قوائمه الضخمة، عرفت كل كواكب الليل الحار أنه من دم نادر الأول، الأسد المجنح الذي كان يدخل المعابد فيقلب المذابح التي يعبد فيها القربان المقدس، حتى اليوم الذي جاء أحد الصاغة وحي سماوي بأن يضع لبدة أسد على بيت القربان، فخدع غرائز الكاسر المدنّسة، فانقلب بعدها إلى حارس لمعرض القربان المقدس؛ قصة كان يعرفها الدُّون أنتيلمو تاباريني لما عمد باسم نادر كوستوديو آخر سلالة النادر.

كان الأسد وهو البهيمة الفتية ذات الشعر المذهب على جلد معرّق، يروح ويغدو، في قفصه، وقد هاجه نداء صوت آنا تاباريني الخفيض الأجش، وهي نهب الظمأ، وبلبلة النزع. كان يقف أحياناً ويرفع عينيه إلى اللانهاية. أحد لم ينم. عاد المروّض من مقصورته التي يحفظ فيها ثيابه وعدّته «بيروكه» بلون

الفيرموت تحت قبعته العالية المزينة بريشة طاووس ومعطف بأزرار مذهبة، واحتذى جزمة لمعتها الرطوبة الليلية وعلى طرف سوطه قشّة من زينبة[31].

قال وقد رفع رأسه ناحية الشبكة التي تختلج فيها البهلوانة كطائر أخذوه من تلابيبه: «آنا تابارينى... آنا تابارينى...»وتوقف لما رآها تحاول أن تبصق عليه من الشبكة، لكنه ركع بعد ذلك ومدّ السوط المزين بالزينبة ثم تمتم: «اغفري لي يا آنا تابارينى انظري، أنا على ركبتي، مستعد للخضوع لإرادتك إذا وقعت من الشبكة بين ذراعي!».

وتقلبت آنا تابارينى في الشبكة كدوري رذيل وأرادت أن تستولي على السوط، غير أن غزوتها لم تدع لها في اليدين غير قشّة الزينبة. عطر الأرض دفعها للصياح في حزم وقلق أكثر:

ـ نادر!... نادر!...

في البعيد، كان يحزر بعضهما حجرا عيني الأسد الكريمان من زئبق مصفر، الراجفان من ظلمات زرقاء؛ كما لو أن النظر إليها وحده يمنح نادراً القوّة كي يهرع إلى ندائها فيحررها من الشبكة التي أخذها فيها الصيادون بعون الذباب، وغير بعيد العبد معلق في شبكة أخرى، قريباً من الحلبة، من جهة مدخل الجمهور.

ـ نادر!... نادر!...

النهدان. ما كان أبيض نهديها حدّ الزينبة! تندُّ عنها رائحة ملح ابتلّ. لطول ما بكت وتعرّقت.

ـ نادر! الألم في سبيله إلى أن ينتزع منها ملح العماد!

وسُمع بيسبيس يقول بصوت واطئ:

ـ العبت يسكل عينيه، فلا ترى العينان، ولا يحسّ الكلب (القلب)، لكن يبقى صاحياً!... يبقى صاحياً، يا عبت...

---

(31) نبات بصلي رائحته عطرية يستخرج منه عطر.

مازال المروض راكعاً قرب شبكة التاباريني. ويبدو من جيب سترته رأس سيكار، على مستوى القلب.

ـ بيسبيس يطلب شيئاً واحداً...

كان ينظر بكثير من الحب إلى جيب المروّض حتى أن هذا رفع يده كي يعطيه السيكار ـ وتلك حسنة أن تعطي السجين تبغاً ـ لكنه لما وضع يده على الهافانا الأسطواني، دفعته ضحكة الأسود، المكتومة اللعوب، إلى تبديل موقفه، فأرسل لسعة سوط خفيفة إلى أضلاع بيسبيس.

ـ أيها العبد اللص، لن أستطيع منذ الآن أن أحب آنا تاباريني حبّاً نقياً، لأنك ضحكت، لأن نظرتك كانت تقول، إنك رأيتني أضع اليد على قلبي... حبّ غريب بصورة سيكار!...

واصطفق السوط من جديد بين عيني بيسبيس الذي كان يبدو وكأنه ينظر إليه عبر نظارات حلقات الشبكة التي كان معلقاً إليها سجيناً.

ـ يا مروّد، لا أضرب عبت! يا مروّد أعطي هافانا وعبت، مسرور، يعلن الحب النقي!...

ـ أربط...

أخذ يقول المروّض، ومازال وإحدى ركبتيه على الأرض أمام التاباريني، غير أن بيسبيس قاطعه:

ـ لا تربط، يا مروّد، أطلق عبتو!

كان يحس العبد أن لطمات السوط التي يجعلها الآخر تصطفق على وجنته، هي ماء غدا سلكاً من حديد. وخيال الأسد، شبح من برونز، يروح ويغدو وراء قضبان قفصه.

ـ نّا... ديرانّا... ديرا!

شفتا آنا تاباريني جفّتا، فغدتا دون صوت.

جعر بيسبيس قائلاً:

ـ «اذهب وروّض أمّك» فما كان يستطيع أن يرفع يده إلى وجنته التي سمّرت فيها حبّات الألم نقطاً من نار. وانتهى إلى الوصول لتحرير إحدى يديه من الشبكة التي كانت تمنع كل حركة وصاح: «إذا وسمني الضرب سوف أليك! (أريك) ».

كان يبكي. ضحك السود وبكاؤهم سريعان، على أهبة انبثاق.

ـ لو أن أحداً أنزلني من هنا ما تركت منك عظماً كاملاً!

ظل المروض راكعاً قدّام شبكة التاباريني، التي كانت ما تكاد تستطيع تنفساً، سكرى من أنها معلّقة، وهو يحسّ بصَغَاره، وكان ينهض كمن دفعه نابض، لولا أنه فكر في الوقت المناسب أن تبديل وضعه، يعني فقدان الأمل أبداً، بأن يراها تستجيب لحبه. أن يكون مستقيماً، مشدود الغرور، واقفاً، دونها، لا! ألف لا! أن تبقى ركبته في الأرض، خاضعاً، لوى رأسه بعض المسافة، كي يجتنب البصاق، نعم، ألف نعم! حتى وهو راكع، مستذل، حتى ولو بصقت عليه، كان يحتفظ ببعض الأمل.

ـ لماذا لم أقل لأبيك، لماذا لم أحدث أباك بحبي، لماذا؟ لأن أباك كان بركانياً، كان قتلني بنظرة وبصق عليّ...

قال العبد: «للأسف، للأسف أنك لم تتلّمه، كان أكلك، لا بصق عليك...» فقد بات لسانه مشحوذاً، وقد صار أكيداً من تحرير نفسه من الشبكة، لأنه بدأ يقطع بأسنانه القاطعة حلقات سجنه واحدة واحدة؛ ومن أجل ألا يسقط بغتة، فقد عمد إلى الإمساك بالسلاسل الصغيرة التي تفلت تحت عضته، وهو جهد يحلّ محلّ الكدر من أن يرى نفسه معلقاً.

ـ نّا!.. نّا!...

كان يسمع، في البعيد، الأسد يروح ويجيء، وقد اضطرب من صيحات آنا تاباريني المخنوقة، وهو يعاني نزع أنه سجين مثلها. وهو ليس لديه من جدوده الأمجاد إلا الاسم ولبدة معرض القربان.

ـ يا جنية البحر الصغيرة، استجيبي لعذابي، يجيئك نادر إلى قدميك، وتركبينه كي تعلني عن عرسنا في السيرك!...

فتحت آنا تاباريني عينيها، فتحتهما أكبر فأكبر، وحدقت إلى صورة المروض الراكع، وصاحت وهي ترتب شعرها ـ لكم كان صعباً تحريك اليدين في هذه الشبكة المعلقة:

ـ يا مروّض، هل قلت عرسنا؟

ثم قفزة مهرّج كي يقبل يديها وخدّيها، فيما العاشق الحيي، المخوف يقبل حلقات سجن الحبّ المفضّض من غبار حراشف السمك، وقفزة أخرى في الفضاء حتى قفص نادر كوستوديو.

ـ أنت، يا نادر يا من أنت أناي الذهبي، يا أناي الأسد، تعال والحس قدمي المروّضة، غرامي؛ وأنت يا عبد، خذ السيكار وانس السوط!

وقفز بيسبيس حين تحرر من الشبكة، دون مساعدة المروّض، لأنه قطع العرى كي يهرب، وأخذ الهافانا وبدأ يدخن ويقذف دخاناً أكثر من قاطرة، فما ينفذ السيكار من السعدان إلا في جهد، لأن هذا كان أيضاً مبتلى بهذا العيب؛ وأسرّ له، وهو يتمطى، بأن العذاب يتبدّل الآن إلى ملذّات:

ـ ولا تقل لي، يا سعدان، أن العبيت يدخنون هكذا، عادة، في الأعراس.

## 17

كان الصيادون الجافون، وهم أشبه ما يكونون بجذور المانجا، يلبسون خرقاً بالية، وعلى رؤوسهم قبعات مصفرة عريضة الحوافّ، يصلحون الشباك التي سجنوا فيها البهلوانة والعبد، انتقاماً لسوريلو.

كان العمل صامتاً؛ الأيدي وحدها تتحرك. يلصقون الوجه بالشبكة، يمسكون أحياناً، بأسنانهم، وقد قلبوا الشفاه، بالخيطان التي توشك أن تفلت،

فيما تربط الأصابع سواها. الوجوه أيضاً كانت تتحرك في بيوت العنكبوت الممدودة، تثبتها قطع رصاص في أطرافها.

في تلك الساعة الصباحية كانت ترافقهم موسيقى الماء الذي يسيل قطرة قطرة من قناة والبلوفّ! البط الذي يرمي نفسه في المستنقع فيتراءى فيه كما في غمامة نوم. كان البيت الكبير يلقي ظلّ ديك على الفناء الفارغ، والصيادون يتسلّون بالتخيل أن هذا الديك سوف يصيح، ويجيب الديكة الأخرى بعد أن يهزّ الظلمات الزرقاء لأجنحة الجدران السوداء ويرفع رأسه ذا العرف الأحمر في البرج الذي قرميده يلمع منذ أن يتنفس الفجر. ومن أجل أن تكتمل رؤياهم، ها هو ظلّ ديك البيت يتقدم صوب دجاجة خِيمة السيرك العظيمة التي هدّها الراقصون كي يرحلوا. ولقد أقعت تنتظر نطّة الديك الأسود.

حرّك منديفيرثوا، أكبر الصيادين عمراً، يديه، لأن إصلاح الشباك يسبب حكّة في الأصابع. انتهى من مهمته. ورد قبعته إلى وراء، كي يهوّي جبينه اللاهب ومرّ برأس لسانه على سحجة صغيرة دامية في إبهامه، قرب الظفر.

فليذهبوا، هؤلاء السكّريون! هكذا فكر وهو يرى إلى الخيمة أرضاً، على أهبة أن تطوى وتحمل. والمشعوذون عند منديفيرثوا ليسوا كائنات من لحم وعظم بل دمى من سكر صبغت بألوان حيّة، ذات مسام كثيرة، تذاب في ماء الحياة اليومية كي نشربها في فرح.

واقترب صيادون آخرون:

- يجب أن نذهب، الآن، يا منديفيرثوا...

- برأيي...

لكن في بيت عنكبوت الشبكة الممدودة في الفناء، وقد أصلحت وأعدت للنزول إلى الصيد رأوا رؤيا غير منتظرة. شيء آخر غير الديك الأسود والخيمة.

أدار رأسه، في بطء، منديفيرثوا، وأذناه للريح التي بدأت تهبّ، ثم دار بعد بكل جسده، كقارب، وذراعه الأيسر يتدلّى بإهمال في كم قميصه،

الممزق، الناسل، بلا ردن، واليمين على زنّاره على صورة عروة جرّة.

المروّض، وقبعة عالية مفضضة على شعره بلون الفيرموت، ومعطف أخضر زيتوني بأزرار مذهبة، وساق جزمة تلمع من برنيق، وعلى طرف سوطه قشة زينبة. وبيسبيس، الهافانا بين شفتيه، وسترة ذات مربعات سوداء وبيضاء، جدّ قصيرة في الكمين وقبة سلولوييد وربطة عنق قط بجزمة. وآنا تاباريني عارية في المايوه اللاصق بجلدها، نهداها صغيران، قامتها نحيلة، فخذاها طويلان وعجيزتها مدوّرة. ووراؤها نادر، ومعرض قربان لبدته العظيم إلى الريح، سعيد لكنّه متحفظ، دون مشكلة، إلا مع نفسه، كي يحس أنه سعيد تماماً.

كانت آنا تاباريني تمر، كآلهة فوق كرة العالم، دون أن تعرقلها الشباك الممدودة في الفناء، سجون عُرىً لا تستطيع أن تمسك الهواء، أو النور أو الماء، أمام جماعة مدهوشة من الصيادين بينهم منديفيرثوا الذي ظلّ مسمراً؛ كانت تأتمر بسوط المروّض الذي يقودها بلسعات قُبل رأسه المزيّن بالزينبة، بين العبد الذي يتذوّق السيكار، ونادر الوحيد.

وبدأ ينسحب الظل بصورة ديك البيت الأسود، تاركاً دجاجة الخيمة البيضاء العظيمة، وجاء الخدم بالجدائل فانحنوا على الشبابيك في زقزقة طيور تتشاجر في أقفاصها.

واقترحت المرأة بذقن، وقد اختبأت وراء ستائر المخدع الذي ينام فيه الهاخاديتو، أن يوقظوه:

- يجب أن نفتح عيني هذا الطفل... هذا غير ممكن، فلنفتح عينيه...

واستمرت آنا تاباريني على انتقاء حركاتها على كرة العالم التي كانت تدور بدفع قدميها في الفناء المشمس بين جماعة الصيادين، والثلاثي الذي كوّنه المروّض، وبيسبيس ونادر والرجال ذوو الشعور المجدولة الذين كانوا ينزلون من أقفاص الطيور، والمرشات وقصب السكر.

غير أن ناس السيرك أمحوا، ذهبوا ناحية رامة الشحاذ، تتبعهم عربات

تجرّها خيل كبيرة، تسافر فيها أقفاص النمور، والخيمة، والعدّة، والعجائز، والنساء، والأطفال. وكان سوريلو، وقد اختفى وراء هبوب الغبار، يدور بمقلاعه فوق رأسه، يسدّد إلى عجلات العربات، التي توغل، وهي ترتج في الطريق الفارغ.

كان ينام الهاخاديتو في فراش من ريش عطر، ووجهه شاحب وعبس حاجباه، يعتمد مخدّة مطرّزة ناصعة ويحزر المرء بزته السوداء تحت القماش الثلجي. كانوا يلبسونه سواداً حتى في النوم.

ظهر «الحنك»، وراء البيت، بين الستائر حدّ المرأة بذقن. أظهر أسنانه للخدم ذوي الضفائر فصعقوا وأشار إليهم بأن يغادروا المكان ويتبعوه. ودلهم بإيماءة على الباب وخرج وراءهم وهو يسألهم أين المهرّج. سمعه يشخر في قاعة الطعام؛ كان ينام وقد تسطّح خدّه على السماط. أمسك به الحنك من نقرته وجرّه على الأدراج وقد تبعته المرأة بذقن

قالت له المرأة الملتحية «يا حنك، كم تشبه اللص الشرير، يا حنك».

وتوقف الحنك، فنظر إليها بعينيه الحيوانيتين. تشبهه بالآب!... المرائية. لم تتحرك عضلة منه. برود عظماء الأرض القاسي.

## 18

كانت كرة العالم التي تدحرجها آنا تاباريني بقدمها المجنحة تكدس رمل شاطئ البحيرة الصغيرة الوردي. وكانت الصبا الناعمة تلاعب شعرها وراء صيواني أذنيها شبه النباتيين، وعلى كتفيها وظهرها. وكان نادر كوستوديو يغوص برأسه بين النينوفر كي يتوّج بالزهر لبدته. وكان يضرب بقوائمه الفراشات التي تتبعه.

ودون أن يتأخروا أكثر على ما كان يبدو آخر حفلة للسيرك في الهواء

الطلق، أبحر منديفيرثوا ورجاله في زوارقهم المحفورة في جذوع الأشجار.

قال منديفيرثوا في وقار: «سوف يؤول الأمر بهؤلاء المهرجين بلون الفجر إلى أن نضيّع صبيحتنا، سوف ترون!».

كانت المجاديف تضرب الماء، المجاديف التي تضارع بحجمها مجرود الفرّان، وتغدو أكبر عندما تتراءى في الكريستال الذي يضاعف حجمها، إحساس النظر الذي يجعل استخدامها أسهل، لأنها كانت في الواقع قصيرة بعض الشيء. وهبّت الريح مواتية، وابتعد الصيادون عن الشاطئ. غير أنهم كانوا مايزالون قريبين من الأرض وطراوة الأشجار العطرة، لما لحقت بهم آنا تاباريني فرحة، مترددة، وهي تدفع برأس قدمها كرة اللازورد الملونة بالنجوم. ومعها، فقاعات وانعكاسات، والأسد، والمروض، وبيسبيس والهاخاديتو.

سأل الهاخاديتو بلهجة اعتذار: «هل وصلت متأخراً عن الاحتفال؟».

ووضعت آنا تاباريني، التي ألبسها الصينيون غلالة حرير من شرنقة واحدة، قدمها على الأرض قفزة أنيقة إلى وراء كي تدفع الكرة ناحية الصيادين.

وظنّ منديفيرثوا أنها أفلتت منها فجدّف ناحية الكرة ذات النجوم التي غطست حتى نصفها، كي يعيدها إلى البهلوانة ويرجوهم جميعاً بأن يتموا طريقهم؛ غير أنِ كرة العالم، وكأنما تدفعها قدماً آنا تاباريني، أفلتت، سريعة، تخطفها الصبا، فكلما أوشك منديفيرثوا على الوصول إليها غطست في دلع تحت الزورق، ثم طفت من جديد في مكان أبعد.

وبدأت الشمس المنهكة وملاحقة منديفيرثوا المجنونة تحولان عنده إلى غثيان. واقترب صيادون آخرون. كانت تلك لعبة أوتاد هزيلة تطفو حول كرة العالم. من كان يملي إرادته على تلك المزاحة الثقيلة؟

واعترف منديفيرثوا بهزيمته ورجع إلى الشاطئ حيث ينتظره الهاخاديتو وناس السيرك. كانت ذقنه التي شعّثها سوط الريح، وابتلّت بالماء الحلو، وذراعاه

الجامدان لطول ما جدّفا، وجسده ذو رائحة البقدونس - كلما تنفس ندّت عنه رائحة البقدونس - تري، إذا رفع قميصه، عضلات جبّار عتيق.

قبل أن يقلع منديفيرثوا قفزت آنا تاباريني في الزورق كي تلاحق الكرة السحرية. غير أنها لم تحاول الاقتراب منها فتأخذها بيديها. استخدمت شبكة صيد كي تقبض عليها. سمكة مسخ، مدوّرة الشكل، بلون اللازورد، عمياء، ذات نجوم بدل الزعانف.

عادت آنا تاباريني إلى الشاطئ، لما حلّ الغسق. كانت نوادر السماء، غيوم المساء المذهبة، ترافق نادر كوستيديو كعائلة صامتة. كل حبّ العتمة المنير كان يبحث عن جمود التمثال في أوضاعَ المروّض. أما منديفيرثوا، بعينيه القلقتين تحت بياض حاجبيه القطنيين، وبين ذقنه وشاربه الواجب تقليمهما، فكان يعد ما أخذ سلفاً من دراهم عن تسليم السمك المقبل.

- منديفيرثوا.

رفع الصيّاد العجوز وجهه الذي أرهقه أنه لم يقم بتعهداته لآنا تاباريني التي ودّ لو أنه يقذف بها ورأسها أوّلاً، بضربة مجداف، إلى المقبرة بلا صليب التي غمرتها مياه هذه البحيرة البائسة، تلك المقبرة المائية، التي تتحرك فيها هياكل الموتى العظيمة ككائنات حيّة: تتثاءب، والفكان مفتوحان، تمدّ وترجع أذرعتها للسباحة، تهز الأقدام لما تحكها الفقاعات، تقرفص كي تقضي حاجاتها التي لا وجود لها، ترفع أيديها كأنها مهددة بالموت، تصفّق، تومئ بالرأس، تتعانق لما تلتقي، تتضارب، تأخذ أوضاع زوجين عاشقين، تخترقها الانعكاسات والأسماك التي تلعب بين أضلاعها كما في أقفاص دون قلب.

وأسكت منديفيرثوا احتجاجه فهو رجل عملي يتألم إذا ضيّع يوماً، يوم ربح. واقترب منه نادر كوستوديو، ولولا عون أبي جسده، لانتهى منه الأسد بضربة مخلب واحدة، غير أنه اكتفى بوضع قائمتيه على كتفيه في فرح بهيمة هادئ، وهو يلعب بنفخ نفسه الحار في وجهه وذقنه. رقته لا مثيل لها. ونام منديفيرثوا أرضاً، بعد أن أوقعه البهيم، فوعد اللص الشرير بالهدايا والزيارات.

غمغم بين أسنانه خشية أن يسمعه فيغضب الأسد، الذي كان يلعب معه حتى الآن... ليعذبني دون أن يأكلني...

وأعانته آنا تاباريني في النهوض، وأبلّ من خوفه وهو يحيط به الجميع، المهرّج، والحنك، والمرأة بذقن، والصيني رافاييل، والسعدان الصغير، وبيسبيس، ومروضو الخيل، والمشعبذون، والألباني بالع النار والهاخاديتو؛ ثم قالت له:

ـ إذا كنت أكبر الصيادين في هذه البلاد، بارك حبنا وعرسنا. ونقسم أمام هذا العالم اللازوردي الذي زيّن بكواكب من ورق مذهّب أن نحب بعضنا ما لمعت فوقنا شمس. ولا نقسم حتى الأبد، الذي لا وجود له، وإنما لما بقي لنا من أيام، ونأمل أن تكون عديدة، شبيهة بهذا اليوم.

وأضافت المرأة بذقن: «بينما في عجلات العربات، الحنك يصرف بأسنانه...».

واستعطف المروّض، وهو يقف إلى جانب البهلوانة: «بارك عرسنا يا منديفيرثوا...».

قال الصياد: «مادام الأمر هكذا، فأنا غير نادم على أني ضيعت يومي وأعلن أمام أب أجسادنا، الذي يخصب خير ما فينا، موتنا، موتاً بلا آخرة، أن هذين هما زوج وامرأة. ينقصنا الشهود...».

قالت: «الهاخاديتو...».

قال: «الأسد».

ـ المهرّج...

ـ الحنك...

ونهدت إلى الطريق عربات الموكب، تلك الليلة، بعد الاحتفال. عن أية أعماق تنفصل النجوم العابرة؟ ورجل المقلاع كان ينام، موزع الأعضاء، مشوّهها، وعضلتا ذراعيه، ذاتا الرأس كعشّي عضلات، وهو دون رأس ولا وجه، شعر وحسب، لقد وجد له ملجأ في الرواق الصغير.

# 19

ترك الشباك منديفيرثوا كي يجيب. كان لا يستطيع كلاماً، دون يديه؛ من يتكلم كمن يسبح بحاجة للحركات؛ حركة بعد أخرى. وانضمّ إليه الهاخاديتو، كي يساهم بالإصلاحات الصغيرة. لكن بما أنه كان يدفعه للكلام، بدل مساعدته، فقد كان يسرق منه زمنه. طفل سارق زمن. كل الأطفال سارقوا زمان. يقضون حياتهم وهم يجهدون في جعل الحاضر الذي لا يملكون ملكاً لهم؛ فلا زمان سوى الحاضر ولا يهمهم أن يمضي. ذلك أفضل لهم؛ حاضر الآخرين وزمان الأشياء. لو لم يكن الأمر كذلك ما كبروا، كانوا يظلون أطفالاً، أبداً. الأيام، الأيام، الأيام... بالقدر الذي يمتلكونها به يصبحون رجالاً.

- يا بني... وانتزع منديفيرثوا نفسه من أفكاره ومن بيوت عنكبوت دخان التبغ، بحثاً عن الجواب الذي ينبغي أن يعطيه للهاخاديتو. لا أعرف، يا بني، ولو عرفت لما استطعت أن أقول لك؛ تلك ليست سوى افتراضات، فرضيّات، استنتاجات...

- ويفترض... ومازالت أصابعه ويداه أسيرات العرى التي يصلحها، وعيناه أسيرتا دخان التبغ الذي يشبه شبكة شيطانية لصيد الأفكار، أما الهاخاديتو فكان صوته حزيناً قليلاً.

- ويفترض؟ تذوّق العجوز جملة الهاخاديتو في لهجة سؤال. وكان فمه بشفتيه المكتنزتين ينفتح وينغلق بين ذقنه والدخان، فيما يقيس جوابه ببلعات ريق صفراء من الدخان.

بلع وأضاف:

- لنفترض... لا يا بني هذا غير ممكن! لنفـ... ترض يعني أن نقبل بأن المعروف هو واقع.

ثم أضاف بينه وبين نفسه: «لكن هل يطمح هذا الشيطان طارح الأسئلة الصغير، إلى غير إذكاء فضوله بافتراضاتي!».

ثم تلفظ بعد ذلك قائلاً:

ـ نعم، يا سيدي، هنا هو الأصل. أصل كل الأشياء. إننا نعرف الإنسان من ماهيته، وماهيتك أنت ممتاز، إرث الغرور والقوّة. آه، ومن أجل ذلك، يجب أن نعرف الفرق بين الغرور والقوّة!

وبعد صمت، أضاف الشيخ، بعد أن عاود عمله، في لهجة خفيفة مرحة:

ـ هذا وبعد، إنه شيء مضحك، فها نحن الاثنين، أنا ذئب البحر العجوز وأنت ملقي الأسئلة الصغير نبحث عن أصل كل ما حدث هنا، في هذا البيت!

واقترب منه الهاخاديتو بحجة ضبط عقدة صعبة، وقد مرّت أصابعه في حلقات الشبكة، كي يعلم هل هذا الوليّ العجوز حيّ، هذا الولي العجوز ذو الذقن، والحاجبين الكثيفين، الملطّخ دائماً بالماء والطين. كل ما كان يجيب على أسئلته الحية، هو جدّ ميت، جدّ بعيد، جدّ زائغ.

ـ كانوا يأتون يا بني إلى هنا، على ظهر هندي أو بغال عالية أو في موكب عربات تجرها حتى السبع دوّاب، ثروات من خيال. كان زمناً مباركاً تجتذب فيه الصخور المراكب بنيران قصب متحجر يقلّد المنارات!

وفتح منديفيرثوا قميصه الذي بلون ملح قذر على صدره الأشعر دون أن يستطيع الخلاص، بتنهدة، من وخز في القلب يمسك به بين جنبيه، وطرف بعينيه دليلاً على السخط.

ـ تمخّط أيها الصبي! مهزلة أن ندخّن هذه الشمعات؛ مصّ كي أمصّك، كدخان التبغ. من أجل هذا، أفضل أن نبدأ التدخين صغاراً؛ والدخان أفضل من الرّعام[32]!

وسأل الهاخاديتو: «أين كانت مراكز الرصد؟»، وقد وضع يده كالواقية على عينيه، وكأنه يترصّد العدو كي يباغته، حركة قطعها كي يهاجم بيده اليمنى، بالسيف، ثم غرز رأسه بين كتفيه وكأنه يفرّ.

(32) التهاب الجلد المخاطي عند الحيوانات ذات الحوافر.

ـ في البحر، يا بني، في البحر! وحين لاحظ إيماءة الهاخاديتو أضاف: لكنك تعرف أكثر مني!

ـ كانوا ينيرون المراكب... قذفها الهاخاديتو، وصوته اسفنجي، مساميّة شفهية، تدفع بالعجوز إلى تقطير ذكريات أخرى عبر خرقة ذاكرته البالية.

ـ نعم، كانوا ينيرون مراكب قرب الشاطئ بأنوار تخفي حركة المنارات، يجتذبونها صوب شناخات[33] الصخور المشوّهة كقدم خشنة. إنها، برأيي، من أجل ذلك تدعى رصفاً صخرية. كانت السفن تنبثق من الظلمة أو من ضباب الليل المزرق، فتلحق بأشباه المنارات، وتنتهي إلى أن تتحطّم على الأرصفة؛ وينتهز الغرق الهاخادوس المختبئون، المتربّصون، فيستولون على الحمولة قبل أن تغطس السفينة نهائياً وهكذا ملأوا هذا البيت الكبير ذهباً، وتبغاً، و«روم»، وأسلحة، وثروات أخر. وتابع منديفيرثوا قائلاً: وتم كل شيء على ما يرام، حتى ليلة ـ ملعونة هي! ـ سقط فيها مركب قرصان في الفخ. عندما أعطيت إشارة المذبحة، أظهر الهاخادوس ما يستطيع الممسوسون بغيظ إعصار. وبعد معركة ليلة ويوم ضباب كثيف، كان امتداداً للّيل دعي الهاخادوس، دون أن يغلبوا، إلى المفاوضة مع قائد الشراعية من نار، التي كانت توغل في الأمواج، بعد أن حطمتها الصخور قطعاً، دون أن تختفي تماماً لأنها كانت تبقيها عائمة قوّة عجيبة. لم يكن ذلك قرصان، أو كان بالأحرى قارب قرصان يقوده الشيطان الكبير بنفسه. وصعد الهاخادوس إلى زورق، وقد تمزقت بزّاتهم السوداء في المعركة، وأشبعت ثيابهم وعيونهم بالماء والنعاس، ومنحهم الملح الجاف الشعور بأنهم ذوو قشر وسريعون كسمك، وحاذى الزورق جانب السفينة التي غرقت حتى جؤجؤها الذي ارتقوا إليه بسلم سنده شياطين مسلحون بطبنجات[34] وسيوف ثقيلة. قال لهم الآخر: «أنا الشيطان الكبير». «وما في ذلك...» أجاب

---

(33) شناخ بكسر الشين نتوء من الجبل أو الصخر في البحر.

(34) بندقية بفوهة واسعة.

الهاخادوس. واستأنف الشرير قائلاً: «ربما استطعنا التفاهم، فقد أضعتم أرواحاً كثيرة، وأنا بحاجة إليكم». «ألا تكفيك أرواح القرصان؟». «أرواح كلاب جرباء امتلكتها فباتت لا تغريني! حصادكم أفضل: نبلاء نسبهم عظيم، ورهبان، وقسس، وأساقفة، وسيدات وآنسات، كل من يغرق لما تجتذبهم أنواركم، كمنارات خير، إلى أكثر ما عرفت من الشطآن توحشاً وعزلة». وأجاب أحد الهاخادوس مختالاً: «إنها تجارتنا، وما دمت تصيب منها مغنماً، فلماذا بحق الله نوقع عهداً». وقفز الشيطان الكبير اللابس حلّة قرصان قفزة إلى وراء. كان لا يحب سماع كلمة الله، حتى ولو كانت في معرض التجديف.، فزعق: «إذن، فلنغرق»، وأجاب الهاخادوس: «فلنغرق!» ويفترض - وتوقف منديفيرثوا يرتاح - يفترض أنهم اختفوا جميعاً في أعماق البحر.

كانت كلاب الصيادين، قميئة تنضح رائحة نار ابتلّت، تلتقط ذباباً، تجتذبه رائحة السمك النائمة في الشباك وقد أثارتها الشمس - يطير واطئاً فوق رؤوسها، ذوات الآذان الطويلة، وظهورها وبطونها. كانت تكهربها الحشرات اللحوحة، فتندفع وبوزها إلى أمام؛ وبحركة وحيدة تأسرها؛ وتحتفظ بالذبابة بين الرغبة والنفس، خارجاً وداخلاً، تعيدها إلى الحلق، وتهتز، وقد انتصب شعرها، وقامت بقفزات، ونطّات حتى اللحظة التي تبتّ بأمرها فتبلع هذا الجسم الصغير الذي يظلّ يئزّ في آذانها بعد أن كان دافع غثيان في الحلق؛ ذلك أنها عظيمة السرعة في القبض على العدوّ.

- أغلق فمك، يا بني، فقد تدخل فيه ذبابة!

غير أن النصيحة جاءت جدّ متأخّرة. فعندما أراد الهاخاديتو أن يطبق أسنانه ويغلق شفتيه، كانت ذبابة تهوّم في فمه وما توصل إلى أن يبصقها رغم كل جهده. كانت تمرّ فوق لسانه إذا مدّه، تحت لسانه إذا قلبه، دون أن تستطيع الطيران، أو تدعه يبصقها، تلتصق بأسنانه، ولثته الرطبة.

كان يقوم بأعجب التكشيرات، ويريل ويتأوّه. وضع إصبعه في حلقه، أبعد ما يقدر، حتى ليكاد يختنق، من أجل أن يقيء. فهل ظلّ يحسّ بها؟ هل

بصقها؟ هل طارت؟ لقد كاد يمضغها. ودون أن يضيع وقتاً أخرج محرمته، بعد أن بصقها، كي ينظف أسنانه، ولسانه، وحلقه.

وجازف الهاخاديتو بأن سأل، وقد بحّ صوته من الجهد الذي اقتضاه طرد الذبابة، ومعاكسة هذا الحادث المزعج، ولو أن منديفيرثوا أظهر استعداده للدخول في «الافتراضات» قال: «هل صعد بعضهم من عمق البحر؟».

وأجاب العجوز بصوت اصطفق كسوط: «خرجوا جميعاً. كلهم أصبحوا، كما شاء الشيطان الكبير، قادة لصوص بحر. قرصان ومغامرون، عائلة الهاخادوس كبيرة، مبعثرة على البحار، ما عدا سلالة أزاكوان التي أمرت بالعودة إلى البيت لانتظار رجعة الأخوة. لأنهم جميعاً يجب أن يرجعوا. لقد اختفوا لكنهم راجعون بين لحظة وأخرى. إننَا ننتظرهم كل ليلة، كل نهار. ولهذا أنت، يا بني، أزاكوانيتو، أكثر منك ألهاخاديتو، زغب بلون الأرض الصفراء، شعر وعظم، مثل جدّك... ماذا أقول، جدّك، جدّك الثالث».

- غريب كنت أظنه جدّي الثاني...

- التفكير ومن ثم الاعتقاد هما سبب الخيبة!

## 20

وفيما يتحدث، هكذا، الشيخ والطفل، كل بدوره وصلا إلى الرواق الصغير.

ودون أن يعلم منديفيرثوا أن محدّثه يعتبر نفسه صاحب بقية البناء هذه، التي في منجاة من تقلبات الأنواء، والعالم الخارجي، شرح له أنها كل ما بقي من المعقل الذي كان يحتفظ فيه الهاخادوس بالمسحوق المقدّس، الذي انفجر في مساء يوم لاهب.

وأتم الشيخ: ومضت سنوات نسي فيها الناس الانفجار والحريق، غير أن

عارضي الدمى يقدمون حفلة كل 29 شباط، وهو يوم عيد اللص الشرير، شفيع السنوات الكبيسة، بكل دماهم التي ترجف كنوابض، في هولٍ وفأفأة.

ولم يضف الصياد العجوز، خلافاً لما كان يأمل الهاخاديتو، شيئاً إلى موضوع هذا المكان الصغير المسقوف، الناجي الوحيد من الانفجار والحريق؛ وأخذ يتحدث عن أزاكوان، فمجّد مآثره، أزاكوان الذي كانوا يضفون عليه، من بين الهاخادوس، أكثر المغامرات غرابة مثل زواجه من إيل ـ طائرة.

أخذ يضحك الهاخاديتو، دون أن يصدّق: من طائرة ورق؟

ـ نعم، يا بني من طائرة ورق! يبدو أن تلك حكاية ولو أنها ليست كذلك. ذات يوم تغيب أزاكوان، وفيما ظن الجميع أنه اختفى، وبات الخدم والصيادون لا ينتظرونه، يكتفون بأن يرددوا: «اختفى، لقد اختفى!»، سمعوا جلبة طراده على حصانه الذي تتطاير من حوافره المحدّية شرارات على حجارة الفناء الكبير، ثم رأوه يطأ الأرض بقدمه، وعلى صدره نور أسود، والمرأة التي اختطف، في جيبه...

ـ صورة؟

ـ لا، يا بني، امرأة من لحم وعظم...

ـ في الجيب؟

ـ في الجيبَ. كان اسمها انديجا. عرفها في المدينة وهي خارجة من درس البيانو. طالبة هيفاء، من أولئك اللائي يبدو عليهن أنهن ابتلعن ساق زنبقة. كانت ترتدي بلوزة بيضاء، وخراطة اسكتلندية صغيرة، وقوس شريط ملوّن في شعرها الكثيف المجدول، وجوارب قصيرة، وحذاء مسطحاً، حذاء مدوراً من طراز ألماني اشترته من مخزن ألماني يديره ألماني تزوّج من سيدة ألمانية.

وأشعل منديفيرثوا تبغاً أسود دخانه كثيف، وحك ذقنه ذقن الصياد، التي ابيضّت من طول ما تراءت في الماء، وترك نفسه يسقط على درج الرّواق، وقد جلس الطفل حدّه، واستمر:

ـ في اليوم الذي قرر فيه، سيّدنا أزاكوان، أن يخطف الطالبة ويجعلها له، تبعها عند الخروج من درسها. وكانت شمس العصر تنيرها من وجهها. وأعمت الشمس المتوهّجة أنديجا، فما انتبهت إلى أن هذا الشخص الغامض، اللابس السواد، يسير على خطوها، كأنه يريد أن يقبض على ظلّها، لم تنتبه حتى حين أمسكت، قدم أزاكون التي احتذت حداداً، هذا الجزء الصغير من شخصها الذي كان يسير وراءها. وبقي ظلّ جسمها حبيس قدم أزاكوان وتمطّى، تمطّى، لدناً كجديلتها، حتى لينقسم، وهي تبتعد. ورفع أزاكوان حذاءه الذي كان يضغط على الأرض جزءاً من الظل الحبيب والتقط قطعة، وطواها كورقة من حرير أسود، قبل أن تختبئ الشمس، ونزع قفازه، صامتاً، غامضاً، ونضّدها على قلبه.

واستمر الشيخ، هادئ الوجه وراء الدخان المجنون: كان حصان سيدنا أزاكوان جاهزاً، فترك المدينة عدواً في الليل المتلألئ ومنذ أن أحسّ أنه على أراضيه، وأنه دخل بيته الكبير الفارغ، انهمك فيما يجب أن يفعل قبل أن يستيقظ هذا الجلد النائم بعيداً عن صاحبته، فيتحول، ويبدأ بالحركة كحيّة ظلٍّ.

وحدق إليه الخدم ذوو الشعور المجدولة، مشدوهين، لا يصدقون عيونهم.

لقد رجع أحد الهاخادو إلى البيت، حاملاً نوراً أسود يتوقد على صدره. كان أول من رجع، لكن ربما سوف يعودون الآن جميعاً.

جدَّ أزاكوان في عمله. صالب بين ثلاثة أعواد من قصب وربط بينها من منتصفها فأعطته ستّ زوايا، أي واحدة أكثر من فروع نجمته الخمسة، زاوية أغلقها بعد بخيط مشدود مثبّت على أطراف القضبان المفتوحة كمروحة مزدوجة.

ولما باتت بنية طائرة الورق جاهزة، قطعة سهم ناري بلا بارود، نجمة بلا نور، ضغطها على ظلّ إنديجا الفاتر وقطع في جهد بالغ شكل المسدس الذي ألصقه بلزقة نشا على الخيط الدائر مثل قاع طبل ورق رنّان.

وأعوزته الشرّابات، شعر إنديجا. ففصّله بضربات مقصّ كبيرة في بقية

الظلّ. بعد ذلك ثبت الذنب الخرقة والكوابح الصغيرة على ظهر طائرة الورق - وخالجه الشعور أنه وضع خيوطاً على الظهر الحبيب - كوابح يطلع أحدهما من الوسط والآخران من الكتفين، أي من الطرفين العاليين لعودي الزاوية الفوقانية، أي في مواجهة الزاوية التي ثبت عليها الذنب على مسافة متساوية من الأضلاع التي كسيت بشرّابات مخزومة تطير في الهواء، خفيفة، مقسمة إلى كومتين مثل كتلة شعرها.

لم يبق عليه إلا أن يطيّر طائرة الورق، حتى يتحقق السحر، طائرة الورق التي جعلت من قطعة ظلّ الطالبة، في نفس ذاك المساء، بين الشمس والقمر..

وانتزعتها الريح من يدي، سيدنا أزاكوان، ورفعتها مباشرة إلى الأفق، ولو أنها مربوطة بخيط يمدّه الهاخاديتو من قلبه، بكرة لا تنضبَ.

«خيطاً، أيضاً خيطاً» كانت تطلب إنديجا وقد تحولت إلى طائرة ورق. أن تبتعد، أن تبتعد ما استطاعت عن سارق ظلها. كانت ماتزال تجهل أن حياتها ارتبطت إلى خيط بيدي أزاكوان.

ثم حالت إلى ما ليس سوى بقعة صغيرة فراشة سوداء في لازورد الغسق الذي صعد فيه القمر، عصفوراً بشعر امرأة تتكلم.

سأل أزاكوان: «هل تحبينني؟»؛ وأجابت طائرة الورق وهي تترجّح من جهة إلى أخرى: «ربّما نعم، ربما لا».

واستعلم أزاكوان بأن هزَّهزّة خفيفة تلغرافية للحبل: «أستنسينني؟» وحركت طائرة الورق، فيما شعرها يصطفق مع الريح، رأسها من يمين إلى يسار وكان الذنب الذي يوازن الثقل يبدو وكأنه يوقّع على أقوالها وهو يمدّ ثم يجذب، كحية، سوطه النائم، فيما ترن الكوابح كأوتار مشدودة من جنون عاشق.

لم يعتم الليل وكان هذا أفضل؛ وحلّ القمر محلّ الشمس، ولحق ضياؤه الذي كمح البيضة ببياض أشعة المساء التي تأخرت كي تطيل خطبة أزاكوان وطائرة الورق.

لكن الغسق تفتّت أخيراً وامتلك جسد السماء الذي تدعمه فقرات ذهب الليل، طائرة الورق التي استمرت على الطيران، وهي لا تُرى، لا تُرى، مثل انديجا في المدينة، وجود ما يكاد يدعمه هذا الخيط الذي يمسك به، أزاكوان، سيدنا، بيديه في قفازيهما، ويلفّه على أصابعه كخواتم خطبته.

ـ إنديجا! كان يتصل بها ببطاقات صغيرة يرسل إليها بالخيط: لا أستطيع أن أصعد إلى سمائك، أما أنت، فانزلي إلى الأرض!

وعلى الجلد الذي بسقفٍ من نجوم تقطّع، في سوادٍ، رأس إنديجا الذي كان يجيب بنعم وهو يحرّك شرّابات شعره الأشعث.

ومرق شهاب من ذهب في السماء اللِيلية. ظهر ثم غاب في لحظة، فجعل الزمن العابر أسرع عبوراً. واختفى مثل زوجات الهاخادوس. غير أن إنديجا وقد شدت بخيط إلى مصيرها، ما كان بوسعها أن تغيب. كان يمسك بها! يمسك بها! وبدأ يدعوها وهو يقصّر الخيط الذي يفصل بينهما؛ بيدين، بيدين مضروبتين بأربع، بثمان، بمائة، تجمع خيط طائرة الورق حتى تقربها إلى مدى ذراعيه.

ووضع عينيه اللتين أغلقهما رمل الدموع على جسد الأسيرة البارد. شرّابات شعر برائحة غيمة ماء عطر؛ وجه جلده ورق؛ وعظام من عيدان قصب.

حملها إلى مصلّى اللص الشرير وهناك، ركع حدّها، فشكر الآب الذي سمح له بأن يسرق إنديجا من عالمها، من سمائها، من دروس البيانو، من أرواب التلميذة، من ظلّها الوحيد، الوحيد مساءً، من حذائها الألماني الطراز اشترته من مخزن ألماني يديره ألماني تزوج من سيدة ألمانية.

وأكملت طائرة الورق المعجزة. أعياد نوافير ماء عديدة الألوان في النهار وأسهم نارية في الليل. وفتح الشبابيك الرجال ذوو الشعر المجدول الذي غطّته اللعنة والجحود. كل شبابيك البيت الذي يجيش بالأنوار والأحلام والعجائب، وشتائم الخدم النحاسيّن، المكتئبين بالرغم من الأحذية والثياب الجديدة.

وانغلق باب الغرفة على أزاكوان وطائرة الورق وانسحب المدعوّون جميعاً في صمت؛ لكن أية موسيقى في الخارج! أية وليمة! شره شعب مريض بالسماع، يعوّض ما فاته هذه الليلة، فيشبع من الأطعمة المولّدة[35] ومن ماء حياة القصب.

ماتت إنديجا صبيّة. ذات ليلة انقطع الخيط وشوهدت طائرة الورق تسقط في رامة الشحاذ، سمكة كبيرة من ظلّ زعانفها شرّابات، تنوس في الماء، عمياء، على إيقاع ذنبها الزاهر.

وصحح الشيخ قائلاً ـ دخان وذقن، عينان صغيرتان وأذنان كبيرتان، وجنتان وأسنان ملطخة بالنيكوتين ـ: «تلك هي الأسطورة، والحقيقة أخرى». عندما ماتت إنديجا ـ ماتت وهي تلد جدّك الثاني يا بنيّ. وفيما يبكي الجميع، ويغلق الخدم بالضفائر في عجلة الشبابيك وهم يرتجفون من كل أعضائهم، مدّوا الجثة ـ كانت تبدو نائمة ـ على نعش من أقمشة سوداء عظيمة وجبال من أزهار، وفي منتصف الجنازة، رفعها أزاكوان، وقد أعمته الدموع، بيديه العاريتين، وعظامها وجلدها رطبان من عرق الموت، وفي بنصرها، حجر عظم من سبج، من قشر الليل الأسود، ثم حملها إلى رامة الشحاذ كي يضعها بنفسه، على أنعم فراش يمكن أن يوجد.

وغارت إنديجا في الماء كما في حلم؛ ولبس، سيدنا، بطلب منه، كاغولية[36]، خاطوا له عليها، بخيطان من العذراء، جداجد حيّة، كانت تبكي، حيثما ذهب، في كآبة حادّة.

وجنّ ألماً. وأخذ وهو يلبس الكاغولية، المزينة بالجداجد، يركض على الطرق، يطلب الصدقة، ويبحث عن إنديجا في المرايا، حتى اختفى ذات ليلة في المستنقع، الذي سمّي منذئذ برامة الشحّاذ.

---

(35) أطعمة المستعمرات.

(36) جبة بلا كمين لا يظهر منها إلا عينا لابسها. ترتديها جماعة رهبان تسمى بالكاغول.

ـ غير أنه حدث أمر آخر. سببه الألم، ولا شكّ. كان يرى إلى الملائكة تعبر الملائكة، كما تعبر الغيوم الغيوم، تتصادم، تتدافع، دون أن تقف في مسيرتها. ملائكة عبر ملائكة، خال أن هذا هو تعبير الشعر النقي. غير أن أحد الملائكة تاه، فما يرى شيئاً، لأن نور الأرض هو ظلام عندها، فظن الإنسان كائناً ملائكيّاً فمرّ عبر جسده. ولم يعد الإنسان ولا الملاك إلى سابق سيرتهما أبداً. في الإنسان توقد الملائكي، الشعر، وحمل الملاك إلى السماء رسالة النثر الإنساني.

ـ تعال، يا بني، وقاده العجوز من حافة الرواق التي كانا يجلسان عليها كي يريه شيئاً كتبه أزاكوان بيده ووقّعه. كان ذلك في مصلّى اللص الشرير حيث كان يجيء، الشيطان الكبير، في القرن الماضي، كي يقيم الصّلاة؛ ولا يذهب بك الظنّ يا بني، أنه كان يلبس ثوباً أحمر، بقرنيه وذنبه، لا؛ كان يرتدي ثوب الرهبان، جبة كبيرة داكنة، وقبعة سوداء من فحم وحذاء بإبزيم، وكتاب الصلاة في يده، وفي وجهه عبوس قاس.

وتبع الهاخاديتو منديفيرثوا إلى المصلّى فوجدا في درج الموهف(37) الذي تندّ عنه روائح شمع انطفأ، رقّاً كتبه أزكوان.

وأسرّ منديفيرثوا، قبل القراءة، إلى الهاخاديتو أن هذا، من بين أجداده. كان يلقب بالباز، ربما لأنه كان مجنوناً، مشؤوماً، أو مكاراً، كنابض في طريقة وجوده. إنّ أحداً لم يعرف.

وهذا، ما تمكن قراءته على الرق، ولو أنّه أمحى إلى حدّ بعيد: «هناك حيث تنزل المنحدرات المواتية للحلم. حيث ننسى حبّاً قديماً، كي نعين الإيمان بحب جديد. حيث تصالب الشوارع الشوارع، ويتلاشى الحاضر على لفح الهواء، خوف الأشياء التي تغرق في ذاتها. حيث العتمة الأبدية تجانب كل ليلة أخطار أدراج النور الذي يشحب، على جنبات تعوّده على الأزهار والأغصان.

---

(37) الواهف: سادن الكنيسة وخادمها.

حيث الأرض تستدير إلى الشمال، الذي تدل عليه بوصلة الطيور في دقة الماس النور المنغوم. حيث ما جنيت من الخارج ينتعش في الداخل، بمواجهات تتنبأ بها، ترحب بها، ولا تمزّقها أبداً ما تتخذ من تصرّفات. حيث الزنبقة ترى نفسها وحيدة بين الزنابق المتآمرة، قبل مجيء الشتاء والموت، عندما تولد بذور المضيء - المظلم وأوهام الصيف السعيدة. حيث تغدو نادرة أمائر الأحياء ويجتمع جوع وظمأ الأرض كي يحيّيا بشر المدن المسكونية الذين بلا ظمأ ولا جوع...».

## 21

كان مشدوداً إلى الرواق الصغير بسلسلة من خطأً طفولية - مرات عديدة قرر أن يذهب أو لا يذهب إليه - كان يرتبط أيضاً بذكرى الأيام التي لم يذهب فيها إليه. كان الهاخاديتو يستعيد طعم شراب القصب على شفتيه في ذاك الصباح، لما اكتشف هذا المكان المهمل من البيت، ولا مالك له، فكان هو الوحيد الذي يستطيع امتلاكه. وما هو الملك غير خيال؟ لقد استولى على الرواق بالفكر. ولم ينازعه أحد هذا الحق الذي اكتسبه بالنزوة وحدها. أو هل هنالك قاعدة للملكية سوى الوهم؟ مالي، مالك، ماله، نزوة بحت. ماله، الآن لم يعد له أبداً. الملكية تضيع عندما ننسى التفكير بها، بات الآن لا يركض بحثاً عن الشقّ الذي يطلّ على السرّ، ولو أنه استمر على الاعتقاد أن مدخل السراديب التي تصل البيت الكبير بمقبرة رامة الشحاذ المغمورة يجب أن يكون هناك.

لقد بحث كثيراً. كانت الخادمات اللائي يجتررن لا يدعنه ينام؛ كن يتكلمن في المطبخ. كل ما كان متحركاً رفع من الحظيرة بمساعدة سوريلو، الذي كان يحوي جسده الضخم سلسلة من عضلات إضافية تجعله أهلاً لأعنف الجهود. أخرجوا براميل الرماد وقطع العملة، وأكياس الجلد التي كانوا

يحفظون فيها بقايا المعادن، والرمل وصناديق أوراق ضخمة، وهياكل إيصالات، واتفاقيات، وفواتير. وكان سوريلو وهو يضحك الضحكة الراضية لمن يظهر قوته، ينظف الزوايا التي يدلّه عليها الهاخاديتو. ثم كنّس كي يكون البلاط نظيفاً ويستطيع سيّده الصغير أن يلصق أذنه بالأرض.

ومزّق الصمت حوله هزيم عاصفة من حرارة مزدوج؛ بات الآن لا يذهب أبداً إلى الرواق الصغير. واصطفت الجذوع والأوراق ذات التقاطيع المبهمة، على حدود الغسق، كأشجار أشباح، بين الأشجار الحقيقية، والتلال غير المحدودة، ظلال بعيدة للتلال الحقيقية.

بات لا يذهب إلى الرواق، فسوريلو يحرسه. آلهة مخيفة. وهل بوسعه أن يجد حارساً أفضل لملكيته؟ كان يجوس فيها من قبل بحثاً عن مداخل ومخارج سرّية، أما الآن، فإنه يجد كل ذلك في الخط الفاصل الملتبس بين الليل والمساء، لما تنبثق وتنحني الأشياء الموجودة واللاموجودة في تجسيد ما لا يرى في نور أو ظلّ، ولا يمكن أن يلمح إلا في الظليل... في تلك الساعة، وبالرغم من مقاومة الصور الواقعية، تتضاعف الصور اللاواقعية. كل هذا لم يكن سوى وهم وتخيّل، ولو أنه يقين في البصر. إيراق أشجار القابوق الكبرى، الأشجار الصغيرة، قوام الهضاب، أقواس الأروقة، الأبراج، الشبابيك، القباب الحجرية، الحيوانات، الصيادون، الفلاحون.

كيف أمكن لهذا القدر من الحقيقة أن يصبّ في هذا القدر من الحلم!

حلم الأحلام الذي يحيط بمصلوبي الكنيسة، وفي الوسط اللص الشرير، وهم أنفسهم حلم، مثل الخدم الأرضيين، حجارة بشعر مجدول على انتظار يقظ لعودة الهاخادوس الذين اختفوا.

وحفظ رأسه بلا حراك، ومازال شعره الكثيف فاتراً من الشمس، فيما تتزايد الظلمة، وفي وجهه الحزين عيناه اللتان من بحيرة تغتذيان من حبّ يغدقه دمه، كما عيون اليافعين.

ما كان الصيادون ليريدوا اصطحابه؛ لكنهم سلّموا. كان ذلك خطراً؛ غير أنهم اصطحبوه تلك الليلة حتى شاطئ رامة الشحاذ.

أين كان القمر؟ في السماء؟ في الماء؟ من الذي كان يطيّره؟ لم يكن يراه أحد. ربما كان أزاكوان؟

كانا بؤبؤا الهاخاديتو، المعلّقان على أهدابه، ينقبان بالنظر، في الامتداد والعمق. طائرة ورق مزدوجة، مدوّرة من ورق ذهب قديم. هل كان ينظر أزاكوان، من السماء، إلى الذي يطير في الماء؟ أو كان ينظر، من الماء، ذاك الذي كان يطير إلى السماء؟ طائرة مزدوجة من ورق ذهب قديم فيها صورة أنديجا تحولت إلى أرنب من جليد.

ـ مستحيل، يا سيدي الصغير، مستحيل! لو أنك فوق، كنت رأيت أنك كلما صعدت ابتعدت هي. إنها خيوط الطريق التي تمسك بالنجوم.

ـ مستحيل، سيدي الصغير، مستحيلّ إنك تغرق حتى ولو ارتديت جهاز غطس، فكلما زاد الماء على كتفيك، والعمق تحت قدميك، كلما قلّت قدرتك للوصول إلى طائرة الورق، الملساء، بلا شرّابات، المذهبة، التي عيناها صغيرتان وفمها يضحك. الانعكاس يخدم الخيط؛ هو الذي يجعله يطير في الماء. نأتي بسوريلو؟ نعلّقه بمنطاد كي يصعد فيبحث عن طائرة الورق في السماء؟ نربطه بسمكة كي يأتي بطائرة الورق من عمق البحيرة؟ لا يمكن تحقيق ذلك، يا بني، لا يمكن. لن يستطيع المنطاد، حتى ولو صعد فبلغ الغيوم، والكواكب، ولن تستطيع السمكة حتى ولو سبحت فبلغت القاع أن يصلا إلى الإنسان بطائرات الورق.

فوهة البركان؟ ألا تعرف ما حدث؟ هناك صهروا ناقوس اللص الشرير، وهو نسخة مصغرة لشكل البركان. مادمت تعرف، لماذا إذن تسأل؟ ـ لا، أنا لا أعرف ـ إذن لماذا تهزّ برأسك، من خلف إلى أمام، وكأنك تعرف؟

بين طائرتي الورق من ذهب نستطيع بلا خوف أن نروي حكاية ناقوس اللص الشرير، ودون أن نغامر بالتحولات التي ترصد من يستفيقون ليلاً.

إنها تبكي. من يبكي؟ إنها تبكي في الخزائن، في الأثاث، في زوايا الموهف. في البدء كانت تبكي وحدها. وبعد ذلك بكين جميعاً، حتى التمخط. شلالات دافئة من دموع على الوجوه الصغيرة الملساء، الشاحبة، الباردة. وهي التي كانت أكثرهن بكاء. لم تكن أكثرهن بكاء... مع ذلك بلى، كانت أكثرهن بكاء، وهي التي تعتني بالآنية المقدسة ومبخرة الذهب التي يخرجونها فقط يوم الحبل بلا دنس. لقد وجب أن يعطوها زيوتاً مقدسة، لأنها دخلت في الغيبوبة وتشنجت، واستبدت بها رجفات لا تكبح حتى لينبهر نفسها. مبخرة نوتردام الذهبية، المبخرة التي قاعدتها مزينة بتسعة رؤوس ملائكة صغار، جوانحها متشابكة، وكونت ملائكة أخرى الكوب، الذي ترمى فيه، بكثير من العناية والحبّ جمرات فحم أدقّ وأقسى خشب، من ذاك الذي رماده جدّ قليل، وحبات بخّور ومرّ؛ المبخرة التي كانت لا تخرج من صندوق الصندل إلا ذاك اليوم، ذاك اليوم الاحتفالي من كانون الأول سرقت المبخرة، دون أن ينتبه أحد، من الخزانة الكبيرة التي تصرف، ويستحيل فتحها دون أن تعوي مفاصلها التي تحميها ككلاب كَلِبَة كلما لمس أحد أبوابها الضخمة التي قدّت قطعة واحدة من الأكاجو.

من سرقها؟ الراهبات وحدهن كن يدخلن إلى هناك. وأنعمت الجمعية على المبتدئات بالجلد الليلي يومياً على ظهورهنّ التي من بيجونيا[38]، وبصوم لا ينتهي على الناذرات نذوراً، وابتهالات عامة، والمناولة، ووردیات[39]، وتساعيّات، لكن دون جدوى لأن المبخرة لم تظهر من بعد أبداً.

الشيطان قالوا. غير أنهم رفضوا مباشرة هذه الفرضيّة؛ كان الاحتمال قليلاً، مادام الله معنا، أن يستطيع الشيطان دخول الموهف، دون أن يترك على طريقه رائحة خشب وثياب شاطت.

إلا إذا ملاك، إلا إذا ملاك... كن يردّدن بين بعضهن كي يتعزّين، بين

---

(38) نوع من الأزهار ذات الفلقتين.
(39) السبحات الوردية.

الصمت، والصوم، والدموع العابرة، لأن البكاء من أجل غرض أرضي كان ممنوعاً عليهن، لأنه، إذا كان ثميناً، عرّض للخطر خلاص النفس، وهو الإناء الوحيد الذي يليق ببخور العليّ الأعلى.

كن يقلن، كي يتعزين، عن الفقدان الذي لا عوض فيه، أن ملاك الرب، نزل، لا من أجل أن يسرق، بل من أجل أن يأخذ مبخرة الذهب، التي تليق بتبخير العذراء في السماء.

كان الهاخادوس يقلسون[40] مراكبهم القرصانية على طول الشواطئ العطرة ثم يتسلقون منحدرات الجبل حتى فوهة البركان التي كانوا يصهرون فيها ناقوس اللص الشرير فيرمون في البوتقة ذهباً قضباناً، وقطع عملة، ومجوهرات كي يغنوا خليطة المعادن والحمم التي يصنع منهَا الناقوس الكبير؛ وكان الفقراء، وقد حملوا هدايا فقيرة، يصعدون معهم في موكب أشباح. كان بعضهم يرمي خاتم زواجه في المصهر الذي يضيء تألّقه بالأحمر السماء، أو بعض دنانير من فضة قديمة منضدة على خيط، أو شرّابات مطر ولؤلؤ، وبعضهم خاتم ذهب رفيع، مثل الهلال، أو كيس تراب ذهبي، أو صحناً، أو فنجاناً، أو ملعقة، من فضة أيضاً، أو صليباً، أو سوراً، أو دبوس ربطة عنق أو راسية رسن من معدن مشغول حتى ليبدو وكأنه ذهب كامد.

وأراد أزاكوان أن يرمي طائرة الورق في فوهة البركان، أن يرمي القمر في الجحيم الذي انصهر فيه ناقوس اللص الشرير. غير أنه لم يصل إلى بغيته. بقي خيط الطرق وخيط الانعكاسات بين أصابعه الباردة. في قفازيهما الأسودين. وفي الأعالي والحضيض، في السماء والماء، ظلت طائرة الورق المزدوجة تطير، بلا خيط، حرة، دون اتصال بشخصه الأصفر. وهزته فرقعة ضحكة أسنان من رماد. لقد عثر في خيوطه المتشابكة على شيء ما كان ينتظره. ما كان؟ لا يصدّق. لا يصدق أن طائرة الورق تكون على هذه الصورة. هذا ممكن، على

(40) ربط بالقلس: الحبل الغليظ.

كل حال. من أين سقطت؟ كيف علقت في الخيوط اليتيمة من طائرة ورقه المزدوجة، من صورة إنديجا المزدوجة، الصورة الحقيقية وصورة الحلم.

واستمرت الأشباح تقدّم نذورها إلى فوهة البركان. وحثّ أزاكوان الخطا لكنّ نسغ الصنوبر، أوقفه على طريقه. رطوبة النجم التي تبكي ذهباً لم تدعه يتقدّم. وفجأة فهم. كانت إنديجا في الصنوبر؛ أمسكت به إنديجا بدموعها الذهبية. واستعطفها أزاكوان فتركته يمرّ؛ وفي عناء وصل إلى حافة المصهر فرمى فيه ما بين يديه، قطعة القمر تلك التي ربطها أحد ما بالخيوط في مكان طائرة الورق.

وارتفعت الشمس. وامحّت عظمة الكابوس الأرجوانية، وسمع الصوت، بالرغم من أن طيور الصباح غنّت، تلك التي تزقزق في الفجر، طيور بتاج، بطوق، بمنقار كبير، بريش أحمر، وقوائم صفراء.

وصدر عن الهدية التي جلبها أزاكوان ولا تقدر بثمن، وهي تسقط في الفوهة التي يصهر فيها ناقوس اللص الشرير صوت طائرة ورق حطمتها الريح التي هبّت على شرّاباتها؛ وأطلق أزاكوان فرقعة ضحكة أسنان من رماد، ثم رجع إلى قاع البحيرة حيث تسبح أضواء الفجر في الظليل الأخضر المزرق ولعاب الطحالب الذي من حلم.

بعد أن انصهر الناقوس رفع من فوهة البركان، ونصب على برج، قريباً من المعقل، حيث بقي يعرض على إعجاب الجميع وعلى أهبة الحركة لتمجيد المصلوب المادّي الذي لم يؤمن بالجنّة سيدنا الحقيقي وأبينا.

ولسوف يدقّ للمرة الأولى في 29 شباط، يوم اللص الشرير، كما أنه زيّن بثلاثة أكاليل من شوك؛ وكان يرى أنها كوب عظيمة لامعة وضعت على قفاها في سجن شوك. والصوت يحرّرها من الأشواك. فعلى أول قرعة من المطرقة على جوانبه التي من برونز وحمم تسقط الأشواك ولا يبقى سوى الورود، التي كانت لا ترى من قبل، فقد اختبأت مثل الصوت في المعدن.

كان كل شيء جاهزاً للتدشين، الأسهم النارية، والرقص والطقوس أمام

المصلوب الذي كان يضحك ضحكة من رماد، من أسنان من رماد، من جنّة العرّاف.

خفضوا جميعاً صوتهم، صوت ريشة ضوضاء الجمهور في الصمت الذي تتنفس، من لحظة إلى أخرى، كان الناقوس الضخم، الذي بكبر بركان صغير، ناقوس اللص الشرير، على أهبة أن يدقّ للمرة الأولى. ورفعوا جميعاً عيونهم في حيوية طائرات ورق تطير، وطافوا بنظرهم بالأشجار والأفق، ثم ثبتوه على أعلى البرج الذي قام إلى جانب المعقل الذي يحفظ فيه البارود.

وكانت المطرقة، وقد ربطت بحبل، تبدو تأتي حتى يد القارع الذي تيبّس وتسمّر انفعالاً. كان يجرّ اللسان الهائل الذي تدلى من النِاقوس من جانب لآخر، دون أن يجرؤ على ضرب صفحة الكوب المعدنية الكبيرة الرنانة. وتمالك نفسه جسد قارع الناقوس العتيق. كان عليه أن يحصل على قرعة أولى عارمة، مليئة، رنانة، عميقة. واندفعت المطرقة، حازمة على أن ترمي نفسها على الناقوس وأن تحطم هذا الجسد الجديد المرنان في أشدّ القرع جنوناً. وحين استقلّت المطرقة عن الحبل، وعن إرادة القارع القلق الذي أخذ يزدرد، دون ريق، جافّ الفم، عقدة في الحلق، عمدت، بعطالتها الخاصة بوزنها وزن القضيب - قضيب اللص الشرير - إلى قرع حافة فم الناقوس الكبير المذهبة، الذي سوف يغني، منذ تلك اللحظة، إلى الأبد، كل 29 شباط مدائح المعدن والحمم لمجد سيّد السنوات الكبيسة.

وظل الجمهور بلا حراك، ثبتت عيونه على البرج، وقد أيقن أن المطرقة الكبيرة نجحت في قرع الناقوس، وأرهبته فكرة أن كل أفراده غدوا طرشاناً، فهم لم يسمعوا شيئاً.

وبدأ القارع يضرب المطرقة من جهة لأخرى بقوة مجنون ثائر تضاعفت عشر مرّات، ولا شيء، لا ناقوس، ولا معدن؛ فلم يضرب هذا الجزء الفحل المشدود القاسي جسد الناقوس النسائي. كانت تضيع الضربات في مدى قطني.

لم يكن ذلك ممكناً! لم يستطع القارع أن يصدّق أذنيه، ثقبي أذنيه الكبيرتين الأشعرين. ربما كان جدّ قريب فأصمّه وابل الجلاجل الأجشّ. لكنه لما أطلّ من البرج رأى الحضور على انتظار، يعترضون، غاضبين، في إشارات أيد وقبعات واسعة، لأنّه لم يبدأ. وأنفذهم صبراً كان أولئك الذين بأيديهم مشاعل مشتعلة تبصق الشرارات على رقبة الرنّة كي تنطلق الشرارات؛ وكان أشدّ قلقاً من هؤلاء، الموسيقيون الذين دوزنوا آلاتهم، والراقصون الذين تنكروا في فهود، وتماسيح، وعظايات، وسلاحف وحيايا.

وأسرعوا، وقد أذهلهم الحدث، إلى الدرج يتدافعون ضرباً وشتائم، سيل غضب ينتفخ، فيصعد إلى قمة البرج.

واضطجع القارع، من ضيق، تحت فراغ حلقة الدائرة الصمّاء، الجنائزية، وقد انقطع الحبل بين يديه الخشنتين، وتنازع طرف الحبل، أول الواصلين إلى المكان الضيق الذي يحتلّه الناقوس تقريباً كله، وحركوا المطرقة. لكن لا شيء، لم تتوصل إلى القرع، كانت تضيع. وأخذ كل ممن وصل إلى أعلى يقبض على الحبل المنسل، الرطب من عرق مميت، ويرسل من جديد قضيب اللص الشرير إلى صفحة حرشفية داخل الفم الكبير الصامت. كان ذلك لا يصدّق؛ فبالغرم من الضربات، العنيفة كضربات المطرقة، التي يضرب بها الجرس، أولئك الذين يستلمون الحبل، واحد بعد آخر، فإن البرق الألماسي الذي يصاحب هدير رعد صوته لم يتوصل إلى أن يسمع.

كان ذلك لا يصدق. أصمّ! مارد أصمّ!

الذين لم يبكوا أخذوا يسكرون ومن لم يسكر صمت من إهانة الناقوس الذي، بدلاً من أن يدق، امتص كمحجمة كل نأمة حيّة حوله: صوت الذباب، وجوقة الضفادع، وارتجاف العصافير، التي فاجأها أنها لا تسمع نفسها، وأنها لا تسمع أجنحتها تخفق بسرعة النور.

وانتشر الخبر وتذكر أحدهم لما سمع ذلك ضحكة أسنان رماد أزاكوان

في اللحظة التي كان يرمي فيها نوعاً من طائرة ورق بأربع سلاسل في بوتقة فوهة البركان التي صهروا فيها الناقوس.

من أين جاء بها، مادامت طائرة الورق المزدوجة المدورة التي تحمل صورة إنديجا تطير في السماء، عالياً، وفي قاع ماء البحيرة، الجدّ عميق، صورة مزدوجة لا يمكن له أن يرقى إليها، فقد صار الآن بلا خيط يهيمن به عليها. ويظل على اتصال بها، فيبعث لها بالرسائل، ويكلّمها كي تجيب بهزّ الرأس بين خصل الشّرابات ووزن الذنب، الآن وقد قطعت السبل، الخيوط التي كانت تربط القمر في الأعالي وانعكاسات البحيرة، خيوط فضة كانت تربط القمر بالقاع.

أخذ الرجال والنساء بحكّ أنوفهم كي يجعلوها لامعة مثل قرص الشمعدان، حارّة ورطبة، علّهم يتنفسون ملء الرئتين الأريج الذي ينشره الناقوس بصورة صوت، كلما دقوه.

بخور! مرّا كانوا يصيحون وبالقدر الذي كان يضاعف القارع ضربات المطرقة، مغيظاً، يعميه الغضب، كان الهواء يمتلئ بالعطر، حتى لكأنه ليس ناقوساً، بل مبخرة هائلة معلقة وهي مقلوبة بسلاسل ذهب، مبخرة داخلها، مظلم، بظلّ فحميّ، جمراته الحيّة من نحاس ترسل بروقاً على سطحه المنحني.

من سرق مبخرة الراهبات كي يرميها في البوتقة التي أذيب فيها ناقوس اللص الشرير؟

ترى هل دخل القمر ـ الطائرة ـ الورق في منتصف الليل كي يسرق بيدي إنديجا مبخرة الذهب في خزانة الأكاجو العطرة؟

وهل كانت إنديجا هي التي رمتها من بعد في مياه رامة الشحاذ لأزاكوان الذي كان لا يتعزى عن ضياع طائرة الورق؟

ـ تلك أسئلة، يا بني، أسئلة؛ والأكيد أنه في كل 29 شباط، عندما يدقّ ناقوس اللص الشرير، كان ينشر بدل الأصوات، عطوراً مثل المبخرة.

وجازف الهاخاديتو فسأل: أين ناقوس العطر هذا؟

وأجابه الصيادون: آه يا بني، لقد تحطم هو والبرج، في اليوم الذي فجّر فيه البارود المقدس، المعقل، في المكان الذي يوجد فيه الآن رواقك الصغير.

كان الصيادون يظهرون أنهم يأخذونه جدّاً، فقد كان حلواً شديد الشبه، بحبّة سكر من شعير أصفر، في بزته السوداء. ولذلك كان يضيق، ولا شك، بفكرة العودة إلى البيت، حيث يستمر الخدم بآلاف الجدائل على التعامل معه وكأنه مازال الطفل الذي سهروا عليه لما كان صغيراً، يمشي على أربع، يجرّ فخذاً ثم أخرى قبل أن يقف في خطواته الأولى، فيستعين بالأثاث الثقيل العتيق، ويسقط ثم ينهض، جسداً ليناً على خشب قاس، وصراخ ودموع إذا كان بعض الخدم ذوي الجدائل في مجال النظر؛ حتى إذا كان وحيداً، وتألم كثيراً، استعجل بالنهوض وإبهامه في فمه يمصّه طويلاً، فيهدأ قليلاً قليلاً وجعه. كان يسترخي في بعض الأحيان على مص إبهامه كل جسمه، لا الألم وحده، فينام كفزّاعة أهملوها.

أن يكبر. أن يخرج من ذاته، من ذاك الأنا الذي يحتويه بالقوة، والذي سوف يتحرر منه جسده الطفل في سرعة المراهقة، مثلما تنبثق من النبات السوق والأغصان. كان إذا امتطى الحصان. يحس أنه مارد. طراد في البرية، وحين بدأ يحسّ بأنه شاب، صاد غزلان وفي يده بندقية بفتيلة.

الهاخادوس يعودون. إن سادة البيت لعائدون. هكذا كان يقول، لمن أراد أن يستمع إليهم، ذوو الجدائل بلا ذقن، وهم ينظرون إلى الهاخاديتو يمرّ، وقد علا حصانه الأسود، وذهب يصطاد، وعلى كتفه بندقيته، أو وهو يركع ويرسم الصليب أمام اللص الشرير، أو وهو يذهب ويجيء في البيت، ويحدثهم، ويضحك من كل شيء، أي يعيش، بكلمة واحدة، كما عاش أسلافه.

عند الخدم، كان الهاخادوس يخافون المرايا، ما عدا أزاكوان الذي كان يرقد مع إنديجا في قاع رامة الشحاذ، كان يعود الهاخادوس للحياة في طريقة عيش الهاخاديتو، في ذوقه، في أساليبه، في رفعه خصل شعره، بطرفة عين، عن جبينه وردّها وهي كخواتم وراء الأذن.

غير أن القول وتكراره بأن الهاخاديتو صورة أبويه، وجديه، وعميه وأبوي عميه، ما كان ليمنع البيت الكبير من العيش دائماً على انتظار عودة المفقودين. كانت الصالونات وقاعات الطعام، والمخادع تنتظرهم. وكان يتصرّف الخدم كما لو أن خبر عودة الأشخاص الذين في حداد قد أعلن عنه. كانوا يعدّون، مساءً إثر مساء، السرر العميقة، أمكنة صمت وريش، ولا ينسون أن يخبئوا فيها نشارة خشب عطر، في الصيف، كي تنفطر قلوبهم ذكريات، وفي الشتاء حجارة سخنت على جمر ولفّت بخرق. ليلة بعد ليلة، كانوا يدعون الشموع والقناديل منارة حتى تبلى من طول ما اشتعلت وحيدة. كانوا يهيئون في المطابخ أطعمة في سرعة عظيمة، وكأن السادة عائدون من لحظة إلى أخرى كي يجلسوا إلى المائدة مع مدعوّيهم. وخمور ومرطبات تحفظ في هواء المساء، وفواكه، وعلب سيجار و«ليكور»، وقهوة...

غير أن أحداً في الرواق الصغير ما كان ينتظر أحداً. لقد رحل الناس عنه نهائياً وآخرهم، الهاخاديتو.

# الجزء الثاني

# 1

يجب أن نذهب بعيداً.إلى حيث لا يصل النظر ولا البحر. إلى هناك ذهبنا. تحت النجوم التي إذا قارناها بحبات الرمل على الشاطئ تبدو كبيرة، وتكلم الخوري. لما انتهى من وعظه ظل وجهه، في الليل، على جمود حجر. نصف طائر ونصف إنسان، سميناه بالخوري لأن الأسقف عيّنه كي يرعى الخورنية التي تركناها من أجل أن نجيء إلى الشاطئ الذي لا يصله النظر ولا البحر.

كان الخوري أطرش فكنا نكلمه بلطف وبلطف كان يسمعنا أحسن. كان أطرش على الأصوات القاسية والبشعة والصراخ والضجيج الحاد. كان الخوري أعمى، لكننا كنا ننحني على عينيه الهادئتين الباسمتين وكان يرانا. كان أعمى على النظرات الخبيثة والأنوار الاصطناعية وإيماءات الحدة والغضب. كان الخوري بلا إحساس، ميتاً، عند من لا يحبّونه، ميتاً كالحجارة، بلا إحساس على الجروح والضرب والحكة، أما نحن فكنا ندفئ أيدينا بأنفاسنا فيحس إذا لمسناه.

ـ من أنتم؟ كان يقول لنا.

وكنا نجيبه بصوت خفيض كي يسمعنا:

ـ إننا نحن... حتى لا نكره على الاعتراف له بجهلنا من نكون حقاً أو على سؤاله إن كان يعرف هو ما نجهل.

يجب أن نذهب جد بعيد. إلى حيث لا يصل النظر ولا البحر. إلى هناك

ذهبنا. وتحت الشمس التي تبدو كبيرة بالقياس إلى النجوم، تكلم الخوري. عندما انتهى من وعظه تحجر وجهه كصخرة قدام البحر.

وكنا ننحني عليه فنكلمه بكلمات لطيفة وندفئ أيدينا بأنفاسنا كي نلمس ذراعيه الضعيفتين. كان يقول لنا «من أنتم؟».

وكنا نجيبه بصوت خفيض:

إننا نحن... حتى لا نكره على الاعتراف له بجهلنا من نكون حقاً أو على سؤاله إن كان يعرف هو ما نجهل.

بعد ليلة ونهار من رحيلنا رأينا مركباً يمر. وما كنا لنتوصل إلى أن نفهم هل كان يمخر الماء أم الهواء، في الضباب الذي كان يضيئه القمر بنور قلّب. صواريه البلا أعلام كانت تحمل أشرعة مترعة بالدموع. وقناديل تغدو وتروح على ظهره، كأنما هنالك من ينتظر مسافرين جدداً أو تفريغ بضاعة ما ممنوعة. ولم نر ولم نعرف أكثر من ذلك. شبح مركب في الضباب. ولقد جئنا من بعيد كي نرى ذاك.

من قبل لم أكن أدري من أنا، وليس أكثر مما أعلم الآن من أنا، لكني ظننت أني تعرفت على الخوري بين نوتية السفينة. لا يأكل ولا يتكلم ويعمل كعبد، إنه هو. أتى بنا كي نرى المركب يمر فلا بد وأنه يعرف أكثر عمّا حدث تلك الليلة. تلك الليلة التي فيها وجهه، بعد أن انتهى من وعظه، صار جامداً كصخرة قدام البحر. نصف طائر ونصف إنسان، كنا نسميه الخوري لأنه عيّنه الاسقف كي يرعى تلك الخورنية التي منها جئنا...

قليلاً قليلاً سكتت الأغاني وشخير البحارة يحاكي ارتداد الأمواج النائمة على هيكل السفينة التي تتقدم وهي بلا حراك. والليل واسع على البحر حتى لتسير السفينة فلا نميز حركتها.

وجدت الخوري على الجؤجؤ قريباً من صاريه. عيناه تحدقان إلى الآماد ويداه مسبلتان تركهما لهوى ثقلهما.

ـ يا خوري!... ـ وندّ على صوتي قشعريرة في ظهره ـ ما تفعل هنا؟

ـ أنا قبطان السفينة...

اضطربت لجوابه.

ـ أين تذهب... أعني أين نذهب؟

ـ إننا لا نذهب. نعود...

ـ من أين إذن نعود؟

ظل وجهه من حجر لم يجبني.

ـ يا خوري!... منذ أجل بعيد... نسيني ولا شك، جعله صوتي يرتعش من جديد. إذا كنت قبطان السفينة قل لي: أية طريق نسلك؟ ما هدفنا؟ في أيّ مرفأ نرسي؟

ـ ليس لنا طريق ولا مرسى...

ـ لكننا لنا هدف ولا بدّ...

ـ أن نبحر...

وجهه كمدينة معدنية أمام عاصفة بعيدة. كان الهواء يقطع شفاهنا المالحة والنعاس يغلق أعيننا.

ـ يا خوري! ومضى زمن طويل في ثانية حتى لقد ارتعش على صوتي. أذكرُ كنت معي، مع آخرين، كنتُ لا أعرفهم، كنت أجهل وجودهم ورأينا مركباً يمر، محاه الضباب، أين ومتى، لا نعلم، لم نعلم.

ـ لماذا إذن تسأل ما نفعل في البحر؟ في هذه المرة ذهب بعيداً...

بين بشر البحر الموشومين حتى أسنانهم، سائمة ضحكها راعد، علمتُ أن الخوري استأجر السفينة التي عليها نبحر والتي تهيم منذ أجل بعيد دون اتجاه محدد.

كنت أجده دائماً في الليل على الجؤجؤ، حدّ صاريه وعيناه العمياوان ـ

الرائيتان مسمرتان على البحر ويداه تبحثان في العمق بثقل مرساة. واضطربنا خوفاً من أن يكون شبحاً ومن ألا تأخذنا السفينة التي بلا قائد نوتية إلى تحقيق أحلامنا المسكينة.

- يا خوري...

وكان الخوري الآن البحر نفسه، مارداً بقدمين من رمل. ننحني على عينيه الباسمتين الهادئتين كي يرانا ونكلمه بلطف شديد كي يسمعنا:

- يا خوري، أين نذهب قل لنا...

لم يجبْنا. ظل وجهه جامداً كمدينة نائمة.

تلك الليلة رأينا سفينة تمر بنا بلا أنوار، ولا يسار، ولا ميمنة، ولقد كنا نقسم أنها مركب ميت تطفو على غير هدى، ربما التي نبحث عنها، لو لم نسمع، بفضل الهواء، صوتاً أنسياً يأتي من وراء الجؤجؤ، صوتاً زاعقاً ولطيفاً معاً. كان يشكو قائلاً: آه! لَوْ علمتم أيها الأنس، كم يختلف شبح الموت عن ظلمة الليل المضيئة!

صاح أحدنا:

- من أنت؟

- من... كأنّه كان الصدى، وبعد فترة طويلة، أجاب:

- من أنا؟ لا أعلم... في كوب يدي كنت أجني الظل الذي يسقط قطرة قطرة من جفون الإنسان كي يكبر الليل؛ أما الآن فليست لي يدان وليس للناس جفون نتصل بها لأياً لأياً بالظلمات والنوم. إنهم إيقاظ، إيقاظ كالربان الذي يقود سفينتنا.

وسمعنا الخوري نبكي خوفاً حتى الفجر، تحت ضئيل النجوم.

الظهر. بعض متعبون. بعض يقتسمون البرتقال والبوح. وبرناردو الصغير يروي حكايات حبه وهو يقطر بين شفتيه وأسنانه عصير الذهب الحلو الذي

يسيل في ذقنه. كان عاشقاً لستّ نساء، لم يكُنَّ، حسب الوحي، غير انعكاس للمرأة التي يبحث عنها الآن على البحار.

ـ ما دَهَى عينيك، حتى تبدُوَا غير زرقاوين.

كان جوبير الصغير، أخ برناردو الصغير، يهتم بعيني أخيه كما بعينيه نفسهما.

ـ إنها دمعة...، أجاب برناردو، وهو يجفف وجنته، بزغب ذراعه العاري، العضلي، الذي ذهبته الشمس والريح.

كانوا يذرون أسماء النساء بين فصيّ برتقالة من ذهب، كَبذور رطبة. ويد لويس بينو، نوتي آخر، تنفتح وتنغلق، وهو يرويَ مغامراته، كشدق أسد جائع، أسد يجأر بحمامات بدل الزئير، على قوله هو فيما يدور بفقاعتي عينيه القلقتين كمستوى لا يجد توازنه.

عند حلول الليل اكتشفنا المركب الشبح المضاء. كان البحر لا يتميز عن السماء فالكل كان عتمة. كانت أضواء المركب تنعكس على هيكله، متحركة ورقيقة وشاحبة؛ حمار وحشي هائل خطوطه مهتزة. واستفاق جوبير الصغير وهو يحكي كل ما رأيناه في حقيقة الليل، كأنه حلم به.

ـ يمكن أني لم أحلم ـ وافق جوبير الصغير على أن حقيقة الليل تشبه الحلم شبهاً بعيداً كي لا يعارض برناردو، أخاه، الذي كان يضحك منذ عينيه الزرقاوين حتى صفي أسنانه المنتظمين، أسنانه البيضاء كحسك.

لن أنسى، ما حييت أبداً، ساعة البرتقالات الحلوة الشريكة بالبوح، والنساء السبع على شفتيْ برناردو الصغير وانتباه جوبير إلى زرقة عيني أخيه وقد غشت نصفهما دمعة، والمناقشات على البحر الذي كحمار وحشي... هل وجد في حلم جوبير أو في حقيقة الليل التي تشبه الحلم شبهاً بعيداً؟ كانت مغامرات لويس بينو العاشقة، توقعها يده، يد الأنيق العتيق، يده اليمنى الجميلة التي كانت أحياناً تبدو لنا كأنها لبدة وتضرب بأنياب أسد.

اقترب أحد، باسم الوجه، كي يستطيع الخوري رؤيته عبر شبكة جفنيه الكثيفة: «يا خوري، لماذا المركب الذي نبحث عنه يختفي لدى بزوغ النهار؟».

أجاب دون تردد، بقوة: «يختفي كالمعبد الذي يمحى من عيوننا عندما نكون في داخله».

هذا التلميح الذي لم ننتظره ـ شد على حرف «ع» في كلمة معبد كي يصله ببعض من الرجفة المقدسة ـ ذكرنا بكنيسة الخورنية التي تركناها في ليلة ذات نجوم كيما نؤم البحر.

وفتح برناردو الذي سمع فكرتي، عينيه.

ـ قلت شيئاً؟ قلت «أيضاً؟»

ـ لا يابرناردو، أردت أن أقول ولم أقل؛ ما أجمل كلمة «أيضاً».

ظل الخوري في مكانه، متكئاً على الجؤجؤ. بدد حضوره مخاوفنا.

ـ إنه جبل جليدي... وليس حماراً وحشياً!

صرختُ ببرناردو: اخرس إنه المركب الذي نبحث عنه!

ـ لا تنظر إليه! لا تنظر إليه!

وغطى جوبير الذي تبعنا عينيْ برناردو بصدفتي يديه السميكتين.

ـ لا تنظر إليه، يا أخي، فقد تفقد نظرك!

كان يخشى جوبير على عيني أخيه خشيته على عينيه نفسهما.

مر المركب قريباً منا حتى لقد استطعنا تمييز صور رافدة مذبح حفظها الجليد وسمعنا أصواتاً.

ـ أقلع سيادته عن العبور إلى المركب الآخر؟

ـ لم يكن آمنا، فلقد بُني منذ ألف وخمسمائة عام، ولا بد لنا من أن نوافق على أن الإبحار على مجموعة ألحان طقوسية هو خطر. إن الطقوس نفيذة كقطعة سكر.

فتدخل بطرك وهو يسوى ثنيات ردائه، قال: «لكن لا ننس إنه زورق خالد».

أجاب سيادته: «تريد أن تقول كهنوتياً، أو سراباً يلهي به الرهبان روح المنتصرين الجدد».

ـ يا خوري، اصغ، اصغ، لما يقولون...

ـ نعم إن العبادة تقضم الآلهة، وتلك ظاهرة شيطانية، مزيفة.

ـ يا له سحر، يا خوري! يا له سحر!

وأبحرنا حتى الفجر. لا ساعات وإنما سنين. لا صباحاً وحيداً وإنما طفولة.

يا له سحر، يا خوري! يا له سحر!

الظل يمسك مجنوناً، بفراعة
الاقتحام والحريق
يضرب درب الزبد.
يا لارتجاف أمواه الفضة،
زبداً أبيض، صخّاباً،
على كل ضربة، على كل ضربة
فراعة بيدي الشبح!
صاح أريد أن أحطم
وهو يزعم كسر قطع الكريستال
الممخرة وراء السفينة
أريد أن أحطم كل علاقة!
فلتبق الأرض حيث هي،
ونحن ندخل البحر
لا نريد أن يلحق بنا

أي قيد ولو من زبد!

أي قيد ولو من زبد!

ـ يا له سحر، يا خوري! يا له سحر!

ـ ما أسهل الحياة عندما تكون السماء في داخلنا وما أصعبها عندما يشغلنا العالم وندع السماء خارجاً!

ورضي البحر فغطته موجات صغيرة كضحكات وابتسامات... وبقي ضياء غامض على ظهور السنين، وما عداه لم يكن سوى كتلة مظلمة في بزوغ النهار.

ـ يا خوري نتمنّى أن نكون سعداء، وألّا يكون الشيطان موجوداً!

ذهبت أبحث عن برناردو في قمرية القبطان. ظل يؤكد أن ما رأيناه لم يكن مركباً، بل كتلة جليد خلقت من دموع. كتلة من جليد تنير، في داخلها، مجموعة من وجوه إنسانية عيونها فارغة.

ـ رجال بلا عيون يا برناردو؟

قالها جوبير خائفاً وهو يرى نفسه في عينيْ أخيه كما في عينيه نفسهما.

ـ بلا عيون كآلهة الوثنيين...

فقاطعته:خ «وهل سمعت ما كانوا يقولون؟».

عندما وضع جوبير يديه أمام عينيّ كانوا يتكلمون عن الهواء، والماء والنار. وصوت بعيد كان يعرّف الحب والشقاق. وآخر أبعد منه كان ينكر الوحدة. وكان إيقاع أصواتهم يتشابك أحياناً فيجعل تخاطبهم حبيباً وحاراً. وأشدها إقناعاً كان صوت الذي يدعوه رفاقه الموسيقيّ الجوال.

ـ أفضل لنا، يا برناردو، أن نصغي، هذه الليلة نغمض عيوننا.

تدخل جوبير قائلاً: «يكون إذن حلماً كما لمّا حلمت بحمار وحش البحر».

أجبتُ: «وما الفرق بين أن تحلم وأن ترى إلى حقيقة الليل؟».

ودرنا برؤوسنا كما يفعل العميان عندما يسمعون أصواتاً من وراء ظهورهم. كانوا ينادوننا من يانصيب الأرواح. نظرنا دون أن نرى. كانوا ينادوننا بين الأموات، ينتزعون أسماءنا، يصيحون بها في الأمد العظيم علّها تضيع معنا.

كان البحر يدخل الكنيسة في قرقرة. والأمواج تُكَوِّن أحياناً، ظهوراً محنية، ورؤوس مؤمنين لا تحصى. كانت الرؤية فيها شحيحة، والأعمدة، والمقاعد والمذابح، والبلّورات كجمرات رقيقة في الصدر[41] ولهب شمعة يطلق حلقات دخان مزيد، وفي المنبر الذي كبويْق ورق مذهب، المهتز وهو يولج في العتمة، شبح إنساني، يرتدي درع كهّان من حراشف سمك ويلبس على رأسه طاقية ذات رؤوس ثلاثة في كل رأس عينان مدوّرتان.

كان يحل المعاون محل الخوري في غيابه ويخرج من كيس أسود، عليه نقط شمع، أسماء المرحومين الذين يساهمون تلك الليلة في يناصيب الأرواح، مكتوبة على بطاقات من عاج؛ فكان يدعو الأسماء التي سمعنا بينها أسماءنا. وآخرها كان يحظى بجائزة صلوات ومراثٍ. وكان الله يسمح بأن تكون الجائزة للروح الأشد فقراً. وكانت تدق الأجراس وتصنع شرارات سندان في الظلمات، وهي ترافق الصلوات التي ينشدها الكورس:

سيدنا، اسمح لنا بأن نموت موتنا
لأن بعضاً يموت موتاً عجباً!

سيدنا، اسمح لنا بأن نتشبه بيسوع المسيح المحكوم الكامل بالإعدام!
لأن بعضاً يموت موتاً عجباً!

سيدنا، اسمح لنا بأن نشيح بعيوننا عن موت سقراط، الوثني الذي مات منسياً من نفسه!
لأن بعضاً يموت موتاً عجباً!

---

(41) صدر الكنيسة.

سيدنا اسمح لنا بأن نموت في حضور ذاتنا!

لأن بعضاً يموت موتاً عجباً!

سيدنا، اسمح لنا بوساوس الموت، والشك والتوبة!

لأن بعضاً يموت موتاً عجباً!

ولا تسمح لنا، سيدنا، بالإعجاب بشجاعة الذي يحتقرون الحياة! لأن بعضاً يموت موتاً عجباً!

لا تسمح لنا سيدنا، بأن نشفى من كل الأمراض، لأنّ مرض الموت، نتعذب منه منذ ولادتنا!

لا تسمح بأن يحول دمنا إلى دود خلال نومنا!

إن العاصفة لا تقتل العاصفين وحدهم؛ والبحر لا يقتل البحارة وحدهم، والأسلحة النارية لا تقتل الذين يستخدمونها وحدهم!

إن بعضاً يموت موتاً عجباً!

إن بعضاً يموت موتاً عجباً!

إن بعضاً يموت موتاً عجباً!

... وبعض يختفي في البحر...

سبع ليال بلا انقطاع بقينا نثرثر قاعدين دائرة صاري الجؤجؤ الكبير، ما ظل القمر طالعاً. «آفر» النّوتيّ الذي كان أعور، يخبئ عينه الفارغة وراء حجاب، امسك بنا بسحر حكاياته. لقد عاشوا في الصّين تلك المرأة ذات الجدائل كحروف كانت تدعى الصين! قصورها بلا أدراج يدخلها الأمراء كبهلوان وهم يقومون بقفزة الموت الخطرة!

روى آفر قائلاً: النساء والأفيون والتعذيب... ثم عاد إلى تأملاته وأضاف... المرأة لا تنسى، بسبب عطر الياسمين في شعرها، ورائحة جسدها البارد كناب الفيل، وعروقها التي بلون الشاي.

ثم استدرك فاستمر.

- نساء إمبراطورية السماء اللائي يرحن ويغدين، دون صوت، على أقدامهن المضغوطة المغطاة. نساء يتحركن كورق لعب حريري.

قاطعه إيرلندي إسباني الاسم: بابلو فيجو. كان يعرف الهند كراحة يده، من دون أن يغادر دبلن. فمر جويير الصغير، جغرافيّ وربان السفينة، بلسانه على شفتيه، كما يفعل العلماء، قبل أن يمتدح الجغرافيا، العلم الذي يمكّن الإنسان من معرفة البلدان دون أن يذهب إليها.

رفع صوته بابلو فيجو قائلاً: دعني مرتاحاً يا جويير من جغرافيتك فأنا أعرف الهند لأني قرأت كل شيء عن جرائم إنكلترا.

واقترب الخوري كمنوَّم فقال:

- عندما يموت مَنْ حولنا من نقصان الغذاء، يغدو شاغلنا الوحيد أن نعطيهم ما يأكلون. إن الله لا يتجلى على شعب جائع عاطل عن العمل إلا بمنحه العمل والغذاء. خلق الله الإنسان كي يربح عيشه بعمله قانونه يقضي بأن من يأكلون من غير عمل يسرقون، إنهم لصوص. إننا نعيش من استغلال مواطنينا لأننا نأكل ما ليس يخصنا. اتبعوا أثر قطع العملة التي تملأ جيوبكم تقتنعوا بصدق ما أقول لكم.

كان جرس صوت الخوري كصوت غاندي، قلقاً غريباً علينا. تكلم قدام الأمد العظيم، كأنه معلق على عصا لا ترى، دون أن يحرك ذراعيه، على نقيض لويس بينو، الثرثار الذي كان يتكلم بيديه.

- الجغرافيا؟... جرائم انكلترا؟ باه! نعرف بلداً عندما نعرف نساءه. تستسلم الإسبانية بحزن عربي، أو سفينة أو معبد، أما الفرنسية فجسد لا يروى وعقل يشبع سريعاً، تعطي نفسها ضاحكة، وتتراخى في كسل بعد ذلك، وفي بيكاديلي... ماذا تروي عن الجغرافيا وجرائم إنكلترا! عرفت إيرلندية كاثوليكية كانت تقول وهي تتعرى: «تعال تناول معي أنا البيضاء كالقربان!» وتركع ذراعاها كصليب فتصلّي، حتى إذا عادت إلى الشارع شكت قائلة: «لو أنّنا نستطيع الدخول إلى الكنائس في هذه الساعات، كان الظل يأكل عيوننا...

عيون الشر حلوة...» يا إلهي من نقّلها وأوهمها!... ثم كانت توبخني: «القبلة تقطع الرأس كسيف! لا، لا تقبلني الآن أبداً! لماذا فعلت ذاك؟ المداعبة، القبلة على الشفة من الشر لأنهما لذيذتان! قبّل يديّ لأنهما أكثر عرفاناً بالجميل! الفم لا! اللّذة التي تدوم قليلاً، أفضل ألّا نعرفها... أنا لا أبكي، يا إلهي، لأني حزينة، أبكي حين يفر فرحي. آه يا إلهي، أحسّ كأني عروس بلا يدين!».

غير أن حكايات لويس بينو لم تكن تتوقف عند الطرف البريئة وإنما تنتهي بالحديث عن غزواته العاشقة بكل تفاصيلها. من لقاءات فاسدة مع محظيات، إلى يانصيب العذراوات الإيطاليات إلى علائق مع فتيان أتراك. عندما كان يصمت لويس بينو، كنا نحس بأن أنفاس رجال البحر غدت كالنهش. كلٌّ كان يتعذب حين يستعيد هذه المغامرات في خياله. خال برناردو الصغير إنه يرى الخوري وقد حال إلى فتى عار وملائكي. وكان جوبير يجنّ حين يلاحظ أن برناردو لا يطرف بعينيه المسمرتين على جسد الخوري. بحار آخر كان يعض أصابعه، وهو يحس جسد فتاة دانية من ذراعيه ليست سوى آفر الأعور. فناوله هذا، دون أن يرفع غليونه من فمه، لطمة دحرجته هو وشهوته على ظهر السفينة.

- السأم قال آفر إلى بابلو فيجو، السأم يحمي من كل هذا. ضد المخدر، ضد الخطيئة والمرأة والحياة... السأم. لا أحب أبداً أن أتقمص لأني سئمت كل شيء وأية طريقة توصل للنرفانا لا تختلف عن الأخرى.

- يا خوري... هل تسمعنا؟ هذه الليلة، أنت وحدك سوف تنتظر المركب في هذا الضباب...

أول ما فعلناه في اليوم التالي أن سألنا الخوري إذا رأى المركب الذي نبحث عنه يمر.

- هل رأيته تلك الليلة لما تركناك وحدك؟ هل مرّ؟ قل لنا...

- مرّ من بعيد جداً... ولقد وقعنا في الخطيئة... لقد اشتهى بعضنا بعضاً.. أنا اشتهيتك أنت...،وتراجعنا جميعاً لما سمعنا ذلك؟ وأنا الذي كانت

تدل عليه يد الخوري العظميّة. بعدها يا إلهي زرعت أسنان شهوتي في عنقود من النساء. كن يرتجفن ويقفزن تحت تهديد عضتي كسمكات خارج الماء. ولم يبق من وليمتي غير القشور في الليل العميق.

واستمر الخوري:

ـ وفيما نقترب من المركب الذي نبحث عنه، وحين بدأت عيوننا المسكينة تميز النّوتيّة وتسمع آذاننا ما يقولون، آنئذ ضيعناه.

وتبدلت نبرة صوته، فنطق مغيظاً بحكم الموت على لويس بينو سبب كل هذا الشر.

ـ وليكن التنفيذ هذا اليوم، قبل غياب الشمس، إذا لم يظهر علينا المركب الذي نبحث عنه.

قطعت كلماته ألسنتنا. بقينا بلا أصوات، خائفين في زاويتنا.

كان الموت يبتسم، وقد انحنى فوق النبي. وقضينا جزءاً من الصبيحة نجوب السفينة. الآن فقط، في حضور الموت، وبعد كل نهارات وليالي الإبحار هذه، انتبهنا بدقة للأشياء، لأبعادها الحقيقية، وألوانها وقيمناها بذاتها، لا ظلها الذي ألقته.

وبعد قليل خيّم الليل. وأظلمت السماء عاصفة مهددة. وأخذ رأس المحكوم بالإعدام ينضح عرقاً كالشمس النازلة خلل غيوم المعامل والزوابع. وانتهت العاصفة فحل محلها في المغرب، غسق كآبة وردية. وكانت أشرعة السفينة منتفخة كطابات كبرى أسيرة.

وألقى المحكوم عليه بالإعدام حواليه نظرة طويلة سوداء وكريمة.

سأله بابلو فيجو الإيرلندي منفعلاً: «ما نستطيع أن نفعل من أجلك؟»

ـ إذا التقيتم من جديد بالمركب الشبح، حاذوه واستولوا على الظل الذي منه النوتية، رجال أقدامهم خضر، بلا رؤوس، وجوههم مرسومة على صدورهم.

وفجأة فيما كان الحكم على أهبة التنفيذ، فيرمى لويس بينو إلى البحر، أشار بابلو فيجو إلى شيء ينبثق من عمق المحيط، كسمكة هائلة.

وأخذنا نصيح جميعاً: «المركب...! المركب!» ما عدا برناردو الذي منعه جوبير الصغير من الرؤية بأن غطى عينيه.

وركضنا صائحين: «يا خوري...! يا خوري...! إنه المركب...! المركب... يا خوري...! المركب.....!».

لقد نجا لويس بينو، لكننا نحن ضعنا.

اقتربت رؤيا المركب وكبرت سريعاً حتى لقد ضاع كل فرحنا في عمق البحر. كان وجوده يهيمن علينا ويجرفنا، أحسسنا بوابل أشرعته الأسود حداداً وأشحنا بنظرنا عن الاصطدام المحتوم بين هيكل شبح البحار وقاربنا المسكين... وفي لحظة أو تزيد... كان على وشك محاذاتنا عندما أخذت أبعاده فجأة تصغر إلى أن اختفى من جديد.

لقد أنقذنا جميعاً جوبير الصغير عندما غطى عينيْ أخيه من خطر مركب الحلم ذاك وهو ربما لم يوجد إلا في عقل الخوري، قبطاننا.

في عيني برناردو الصغير الزرقاوين، وتحت جفنيه، احتفظت سفينتنا بمقاييسها العادية، من أجل خلاصنا.

سألناه فيما بعد: «ما كان سوف يحل بنا، يا خوري؟...».

صاح: «كنا اختفينا...»، والتفت بوجهه ناحية الأمد العظيم، إلى الأفق الذي امحى فيه المركب الشبح، واختفى على بحر رائق تسقط فيه النجوم الهاربة من السماء كي تبحث عن المراكب الضائعة في البحر.

ـ يا خوري، سوف نقضي الليلة معك قرب صاري الجؤجؤ...

ثم تكلمنا أكثر كي يسمعنا ـ كان الخوري أطرش على الأصوات القوية والضجة الحادة والعاصفة ـ كان يسمعنا أفضل عندما نتكلم بصوت خفيض:

ـ يا خوري، عندما يتعذب الرجال، يشتكون مثل الأطفال. أين أنت؟ لماذا تتركنا وحيدين؟

عند بزوغ النهار نبهنا بطرف جفنيه طرفاً خفيفاً إنه يسمعنا وأحسسنا عيوننا وردية من فجر ومن فرح فخورينا وقبطان مركبنا معنا من جديد، في عرض البحر.

قال الخوري: «الأرواح لا يتصل بعضها ببعض إلا في الماضي. أما الأجساد فتتصل في الحاضر. هل ترون النجوم؟ هذه النجوم المذهّبة قدّام الفجر. لمعت منذ قرون حتى وصل نورها في مطلع هذا النهار. وكما يجمع الليل النجوم الماضية كي يكون سماء، كذلك ظلماتنا تجمع، كي تكون روحنا، اللحظات الماضية مع الكائنات التي كانت قريبة منا».

علّق بابلو فيجو قائلاً: «خسارة. لو أن لي نجمة لغليوني، من تلك النجوم التي لمعت ملايين السنين قبل أن يصلنا نورها، أشعل بها التبغ، الذاكرة التي تنسحق فتذهب دخاناً أبيض».

قال جوبير الصغير: «أنا لم أتزوج من خطيبتي الأولى ومع ذلك فقد اتحدنا دائماً بالذكرى».

وتابع الخوري: «إن الكواكب والغبطة الإنسانية تتصلان بالماضي. وكيف نفسر ميلنا الطفولي إلى الملذات إلا بتذكر ما اختزناه حدسياً من متع. مُرّة هي شفة الذين ليست لهم أية ذكرى عن فاكهة حلوة أكلوها، صماء هي الأذن التي لا تذكر غناء طائر، عمياء هي العين التي إذا أغلقت، لا تجد تحت جفنيها ابتسامة وجه معبود، حتى ولو كان ميتاً أو ألوان منظر كانت فيها سعيدة. لماذا تنسخ مياه النهر، في مجراها، المسافات التي تمر وهي تتبخر فتؤلف غيوماً أو في مياه البحر المالحة إذا اختلطت بها؟ وما كانت تكون الجنة لولا أنها ذكرى غبطة سالفة؟ إن الجنة هي ذكرى جنة أخرى...»

ـ يا لهذا السحر، يا خوري، يا له سحرا!

قال برناردو الصغير وهو يضرب حديد بؤبؤيه الزرقاوين بمطارق جفنيه وهما يرفّان: «تذهب المرافئ مع رحيل كل مركب وترجع مع كل وصول مركب؛ وذات يوم عندما تتعب من الذهاب والمجيء دون انقطاع سوف تسافر جميعاً نهائياً كي يتصل بعضها ببعض في ذاكرة البحر».

وسُمِعَ صفير سمكة، كأنّه خارج من مزمار مفاتيحه مذهّبة.

قال برناردو الصغير: «أنا أعتقد أن الأسماك التي تغنّي تعلمت ذاك في المرافئ، ففي صياحها حزن كبير، حزن مشردين ذوي ذقون عيونهم من فضة وسخة».

يا خوري أنظر مثل هذه السمكة المدورة كيف يحترم القمر هذه السمكة الصغيرة التافهة؛ أنظر. لكأنّه يشتهي أن يبتلعها، تلك سمكة تغنّي، ويود، كي يحملها في قلبه، أن يبتلعها. وهو لا يؤذيها يلعب معها؛ خافت السمكة الصغيرة، غير أن السمكة الصغيرة، انعكاس القمر، منذ أن ابتعدت، راجعت الغناء. الليل له رائحة مياه لا تنام.

جرح لويس بينو يده اليسرى. كان يشذب صارياً بالفراعة. حملوه مغمى عليه إلى مرقده. على الطريق سقطت الأصابع؛ بعد لأيٍ استُخْدِمَت طعماً للسنارات. كان بابلو فيجو الإيرلندي البارد يقول ضاحكاً وهو يحضر السنارات:

ـ هه! أتيحت الفرصة لسكان البحر كي يلحسوا أصابعهم!

ـ عند نصف الليل صحا لويس بينو فرأى يده مضمدة وأحس أنها بلا أصابع فسأل حزيناً: «من يعزف الآن بالأكورديون؟».

اسكتناه ونحن في الظاهر مستاؤون من أن نراه مهتماً بأمور كهذه، ولو أننا في الحق كنا نسائل أنفسنا سؤاله في كل لحظة:

ـ من سوف يعزف على الأكورديون؟

ـ يا خوري، استبد بي القلق! ورمى بنفسه على قدميْ الآخر الذي كان

يبدو في تلك اللحظة غائباً ـ لا أعرف لماذا يا خوري لكنه القلق، القلق... يا خوري، بهذه اليد التي عاقبها حدّ الفراعة! لو أن كل هذا لم يكن سوى حلم! ماذا أصابنا، يا خوري، حتى يلاحقنا ألم أخطائنا كظلنا؟ يا خوري ضربت حبيبتي وقلقي عظيم! لا أعرف كيف، لكني منذئذ يؤلمني وجهي في المكان الذي ضربت، ذلك الجسد الأسمر باليد التي عاقبها حد الشفرة لمّا حانتْ ساعتها. إني أتوب، وأود لو أن كل ذلك لم يكن سوى حلم. لماذا نحن هكذا؟ لماذا لا نستطيع نسيان الذكرى التي توجعنا، تدمينا، تقتلنا، مادام النسيان يريحنا؟ يا خوري ضع يدك على وجنتي، في المكان الذي ضربت عليه حبيبتي!

كان الخوري يصغي إليه وعيناه ثابتتانِ على الأمد العظيم.

واستمر لويس بينو وقد ركع أمام الخوري: «أنا جبان، وجبانة هي الكلمة التي تزحف وتتجرجر قبل أن تخنقنا. أنا جبان غير أن قلقي أكبر من جبني!...

وبعد صمت أحرقته، على وجه الماء، أسماك فوسفورية كانت تضيء جري الأسماك الطائرة، ألح لويس بينو قائلاً وهو ساجد، وقد وضع وجنته على قدمي الخوري:

ـ يا خوري، لي حبيبة وقد ضربت حبيبتي، ضربتها على وجهها، ضربتها بقبضتي!... أنت تعرف كيف يكون الضرب يا خوري! نرخي ذراعنا في قفزة أرنب وعلى طرف الذراع، الذي تمده العضلة ذات الرأسين، اليد التي تغدو كتلة عمياء تضرب البقعة التي نريد. جرحها. يدي ضربت وجه حبيبتي، ضربتها على الوجنة حيث كنت أداعبها في الأيام الأخرى، وأقبلها، والآن يكبر قلقي الذي امتلأ دموعاً! اطلب الغفران من الذين لا يغفرون!

كان صوته صوت الممسوس يتميع فما نستطيع سماع ما يقوله إلا لماماً وفي قرقرة نحيب.

ـ يا خوري إن أية جهة لا تؤلمني، فهنا ألمي، وأود لو أتألم كي يكون لي سبب أشكو منه، وليس فقط كما أفعل الآن من هذا الشيء الغامض الذي أجهل ما الذي ينتسب إلى الحياة. أي فضل يمنحني الله لو أنه يبلوني بمرض من

تلك التي تجعلني أتعفن في بعض ساعات، في بعض ساعات تدعني بلا أصدقاء، دون رفيق لا الذباب الأسود والدود.

ورفع نبرته من جديد.

ـ يا خوري كانت لي حبيبة وضربت حبيبتي! كيف بوسعي أن أقول إنه كان سواي! كيف أخطئ أنا نفسي! كيف أكذب على نفسي! كيف أنقض الحقيقة، والواقعة، والواقع!... بعد أن ضربتها، يا خوري، ظننتني قوياً، وقحاً، قادراً على الاستمرار بضربها، لكنني أحسست حالاً تقريباً أني مغلوب، مهدم، وأني دون إرادة. مائة مرة أردت أن أداعبها ومائة مرة أمسكت بنفسي، فلم أكن طفلاً، والأطفال وحدهم يضربون ومن ثم يداعبون.

حرك الخوري شفته لماماً كي يقول:

ـ الحب من شأن الدواب...

وسمع صوت لويس بينو وقد وقف الآن يقول:

ـ يا خوري أود أن أعيد عليك كل ما قلت لك، أن تصغي إلي وأن تفهمني، ولو أن الإصغاء يختلف عن المعاناة!... إني حتى ولو صحت إليك ألف مرة: «ضربت حبيبتي!... ضربت حبيبتي!...» فلن تستطيع الإحساس بذلك مثلي. يا خوري، ضربت حبيبتي! لماذا ما أصيح به لا يعدو أن يعني أكثر من أني تأخرت عن القطار مثلاً! لكن ما يبدل هذا مادامت الواقعة تبقى نفسها، دائماً نفسها، نفسها نعم، غير أننا على الأقل نستعمل للتعبير عنها كلمات أخرى، لا نفس هذه الكلمات، التي أمقتها وأكررها دون أن أصل إلى إفراغها من المعنى الذي تحويه، ككؤوس ملأى حتى الشفة من نفس الماء المر. الوقائع لا تستطيع تهديم نفسها يا خوري، وهذا أمر نتعلمه متأخرين جداً. الأحلام تتهدم، الكوابيس نستفيق منها، وأبطال الروايات يمحون، ينقطعون عن الوجود حين نقلب الصفحة أما الوقائع، الوقائع لا تمحي أبداً. لو أنها تمّحي إذا قلت ببساطة: «هذا ليس هو الذي حدث. كنت صحت: «أنا لم أضرب حبيبتي!... لم أضربها... لم أضربها، يا خوري!» وعندها يمتلئ قلبي مرحاً.

كرر الخوري ووجهه الجامد كصخرة قدام البحر:

- الحب من شأن الدواب!...

- يا خوري، كانت لي حبيبة وضربت حبيبتي! أذكر ذلك... في المرة الأولى التي تقاتلت فيها، في المدرسة، مع طفل آخر، أحسست بنفس الضيق. لماذا لم يكن الأمر على العكس؟ لماذا لم تضربني هي، لماذا أنا الذي طبعت على وجنتيها آثار أصابعي السوداء كالزفت؟ الآن، لحسن الحظ، بتّ دون أصابع... لقد عوقبت يدي... هذه اليد.. هذه اليد، يا خوري، التي ضربت بها حبيبتي!

صاح بابلو فيجو الأيرلندي: «يا زهرة! يا زبد! يا عصور الذهب! أعينيني كي أغني...».

والتقطت سمكة، في هزيز صامت، سمكة عيناها من حلم، وجسدها كعروس بحر، التقطت السنارة المطعمة بلحم أصابع العاشق الذي ضرب حبيبته...

- يا خوري، لي حبيبة وأنا ضربت حبيبتي!

صاح بابلو فيجو:

- أيتها السمكة، يا سيداً من عاج ومن قمر تجمّد، يا عمياء كمرمر بعينين من كريستال لن تَريْ خارج الماء أبداً نظرة النجم النابحة!... أعطونا يوماً بلا موتى!...

- يا خوري، لي حبيبة، وأنا ضربت حبيبتي!

- أعطونا يوماً بلا موتى!... أعطونا يوماً بلا موتى!

# الجزء الثالث

# 1

في حياتي امرأتان تمرّان بها بنفس الوقت. وهما غير مهمتين. وتكبر مأساتي لما أفكر أنهما ليستا مهمتين. كلتاهما تحتل نفس المكان في ذاكرتي أمر غريب؛ لكنه هكذا: نفس المكان في ذاكرتي- مثل صورتين مطبعيتين. ويختلط وجهاهما وجسداهما، حتى ليبدو لي أنهما وجه واحد وجسد واحد.

عشت معهما في غرف بلا شبابيك. أفتقد ذكرى خطاهما في هذه الأيام: كانتا تمشيان كشبحين، دون ضجّة، وتتكلمان بصوت خفيض. قضيت طفولتي مع امرأتين كانتا تخافان من أن توقظا أحداً، أو أن توقظانا نحن، نحن الذين سجنّا في هذا المأوى بلا نور. لم أعرف أبداً أيهما أمّي. كانوا يقولون إن أحداهما هي أختي. عندما أتذكر تلك الأيام أميّز إحداهما عن الأخرى لأنهما عندما كانتا تقبّلاني، كانت التي تحبني أكثر تؤلمني بقبلتها التي لاتنتهي. عن هذه أقول إنها كانت أمي، وعن الأخرى أختي، وربما أخطأت، لأنهم كانوا يقولون أيضاً أنّ من ظننتها أختي كانت أمّي.

أنا لم أعرف أبي، وأمي كانت تلكما المرأتين الحلوتين اللتين تحزنني ذكراهما، تجهدني، كما لو كنت أفكّر بأشياء حزينة. في حفلات رفاقي التي تطول لما يسكرون، يزعجني ألّا أستطيع الضحك، والغناء والمزاح، لأن شيئاً أقوى مني، موسيقى صغيرة مهملة كئيبة، تملأني مرارة شاقّة. أنا لست سعيداً، لكني لست بائساً، سعادتي قائمة على أني أفكّر بالذين كان بوسعي أن أكون معهم سعيداً، وفرحي في ألّا أستمتع، بأن أحسّ نوعاً من دغدغة الروماتيزم، إجهاد المعدة، فقدان الشهية. جدوا لي إنساناً من مثل هذا!

كانت الحجرات التي قضيت فيها طفولتي تطلّ على قاعة طويلة، بلا شبابيك، بلا أثاث، بلاطها قرميد ينخسف. غرف ما كانت تدخلها الشمس. ولا القمر، وهذا أدهى. فالقمر يمنح أفقر الغرف طعماً آسيوياً. وكنا ندخل إليها من باب كبير يطلّ على بستان. درفتاه الثقيلتان تبديان نقوشاً تمثل مشاهد من حياة القدّيس كريستوف ورأسي أسدين تسقط عليهما مطرقتان من حديد. ولقد نظرت دائماً إلى هذين الشخصين بلبدة باحترام خائف. كانت ترهبني عيونهما المغلقة. وكانت تدعم الباب ثماني مفصلات على صورة ملائكة، أربعة من كل جهة. وكانت تعطيني هذه الملائكة فكرة خطأ عن السماء.

ذكرياتي كثيرة عن البستان. كنت لا أستطيع رؤية الكثير من الباب، بالرغم من العناد الذي كنت أحدّق فيه إلى الأوراق ظانّاً أن عيني تستطيعان بطول التأمّل أن تنفذا عبرها فتريا ما بعدها. كان يحدث أن تزيح الريح الأغصان، من حين لحين، فأتمكن من رؤية شوارع الرمل الأبيض، والتماثيل التي كنت أخالها أشباحاً ومساكب الأزهار، والماء الذي كان ينبثق، لا أعرف أين ويتدفق في سلال الأحواض المدوّرة. لم يكن لدي الحق في الخروج إلى عتبة الباب، فكنت أستغلّ اللحظات التي يتركونني فيها وحيداً، كي أنظر إلى البستان. وما كانت تسعفني دائماً الريح. وما كانت الرغبة فيها بمجدية، فهي دائماً تهبّ حين لا تنتظرها إلا قليلاً، مرات عديدة انتظرتها عبثاً حتى الليل.

ذات ليلة قمراء رأيت شكلاً أسود بين الأشجار. أذكر الصوت الذي أحدثه وهو يمشي هشّ تقصّف. راحَ وغَدَا، ثم توقف طويلاً في جوار جذع ورحل حالاً. وحين اختفى ترك ناراً عظيمة موقدة. وتكرر الشيء نفسه بعد ثمانية أيّام؛ وفي الأسبوع التالي أيضاً، غير أن الشبح اتجه، بعد أن أوقد النار إلى الباب الذي كنت فيه. كان رجلاً؛ لما صار على قرب منّي أستطيع معه أن أرى حتى أزرار قميصه فررت، وتركته مزروعاً هناك (أنذّرتني والدتاي قائلتين، إذا خرجت إلى العتبة سرقوك).

ما أن رحل الرجل حتى دخلتا والدموع في عيونهما. كانتا ترجعان من

الخارج وعيونهما حمراء من بكاء. وتجيئان، دائماً، فتبكيان حدّ سريري معي قبل أن تناما.

كانت تزورنا كل سبت أربع سيّدات يبدو عليهن الحمق. وعرفت من أحاديثهن أنهن عضوات في مؤسسة خيرية وأننا معوزون مستورون. لأنهن كن يكررن ذلك غالباً. بعد السيدات كانت تأتي جماعة من السادة الاحتفاليين؛ فيقبلون أدباً، يدي والدتي. وبعد قليل كان يجيء الخوري.

كنا نجمع كلّ كراسي البيت، حدّ حاجز، كي نرتجل صالوناً صغيراً. وكانت والدتاي تستقبلان، وقد لبستا أحسن فساتينهما، وأقلّهما رقعاً، وتجتهدان في إخفاء حذاءيهما القديمين بخراطتيهما. وكانتا تبدوان إلى جانب ثياب السيدات الأخريات الجديدة اللامعة، وسترات السادة الغالية وجبّة الخوري، الجبة الرائعة، شخصيتين تاريخيتين فرّتا من متحف أو دميتين تظهران ثياب الماضي التي نَصَلَ لونها.

كانوا يتكلمون عن الزمان ويشيرون إلى الله كل لحظة. كانت تخرج كلمة الله من فم الخوري تتبعها نفخة دخان. كانوا يتحدّثون عن خلود العادات، وهو النذير بنهاية العالم، ويحتجون على شبق الناس الذين كانوا ينامون وينهضون كالسائمة. إنهم لا يصلون! إنهم لا يصومون! إنهم لا يفكّرون في الله! وتخرج كلمة الله من جديد من فم الخوري تلحق بها نفخة دخان. ويتّصل الحديث عن الموت والكتب بالطّرف. فيصف الخوري أرهب المشاهد كي يصوّر آخر ساعات الخطاة، فيقارنها بالنزع الهادئ لدى الذين يموتون أما السيدات اللائي كانت تزعجهن المقاعد القاسية فكنّ يقمن بتعليقات تختلف طولاً وقصراً. وأحسّ أنهنّ يُلَحنَّ المحادثة.

كانت والدتاي طول مدّة الزيارة ترفعان وتخفضان في خضوع الجفنين، آخر ملاذ الذين يرغبون، وقد قعدوا عن الحركة، أن يفهموا الآخرين أنهم مازالوا أحياء. وينضاف إلى نقصان الحيويّة عندهما اضطهاد الثوب العتيق الذي تستطيع أدنى حركة تمزيقه.

وكان الحضور ينسحبون لمّا يمتلئ البيت بالله والدخان. فيمد الخوري يداً

كيد الغوريلا تصافحها السيدات في خور. كان ينحني السادة في عمق ويقبل السيّدات بعضهن دون أن يقتربن كثيراً من بعض. وكانت والدتاي تمسكان بأنفاسهما خشية أن يطقطق الثوب، وهما تتقدّمان الزوّار لتدلّاهم على طريق الخروج، الذي لا يتبدّل. وكنت أحب أن أراها في ظليل النهار الغارب: تلك التي كنت أحسبها أختي، بفمها الأحمر كثمرة القهوة، وتلك التي كنت أحسبها أمي، بأهدابها الخفيضة، ووجهها الشاحب. عند الباب كان الزوار يستأذنون من جديد بالانصراف. ويرتدي السادة قبعاتهم ونسمع عربة مؤسسة الإحسان تجري حتى طرف الشارع.

جاء هؤلاء الناس مدّة جدّ طويلة إلى البيت. دون أن أدرك معنى تعبير معوز مستور ولو أني كنت أحدس الدناءة التي تنطوي عليها هذه الصيغة: أن نخجل من أننا فقراء بعد غنى؛ من أن نتلقّى كإهانة الصدقة التي يعطوننا إياها سرّاً.

ذات سبت لم يجيء أحد. قضيت بعد الظهر في الباب، وحيداً، دون أن أرى البستان، لأن الريح لم تحرك الأغصان. وهبط المساء، دون قمر، ولا نجوم. وركضت دون أن أدري لماذا فبعثرت الكراسي وأنا أقول لنفسي. ولّت الزيارات...

وأغلقت والدتاي الباب على الليل الأسود وسمعتهما تقولان إن المؤسسة باتت لا تساعد العائلات التي لها أطفال سفاح. بكيتا ونمتُ. وعندما استفقت، عند نصف الليل ولا شك!، ظننتني أسمع عربة مؤسسة الإحسان تبتعد عنا إلى الأبد.

## 2

في ذلك الوقت انتهيت من كتاب القراءة الأول. أتذكر من صوره طفلاً يلبس نوعاً من الوزرة يطيّر طيّارة ورق. كنا في قريتي نسمي الوزرة مريولاً

وطائرة الورق نجماً مذنباً. ولقد تأملت للمرّة الأولى لأني لم أكن ذلك الطفل: السماء، الهواء، الأرض، النور، الشمس، كل هذه الأشياء وجدت من أجله، طفل تلك الصفحة السعيد. وددت لو أنتزعه منها وأضع نفسي مكانه.

عندما انتهيت من الكتاب أقاموا لي حفلة. تلك التي أدعوها بأمّي أمسكت بعينيّ، طويلاً، واحدة بعد الأخرى تحت شفتيها. التي افترضت أنها أختي أهدتني كتاباً آخر مزيناً برسوم بالألوان مازلت أحتفظ به في مكتبتي. كانت تحسن صنعاً لو أنها احتفظت به: لقد مكّنهما هذا الكتاب من الاقتناع بأني أعرف القراءة في الكتاب الأول فحسب أو بالأحرى أني لا أعرف القراءة. ولقد اندثر نصري الأوّل بين صفحاته.

مأساة. كنت لا أعرف الألف، من طولها كما يقولون عادة، وكنت أقرأ من الذاكرة، دون أن أنسى نقطة أو فاصلة، من دروس كتاب القراءة. ذاك المساء، ذهبت أنام وحيداً، شاكياً في هدوء أمري للقديس أنطوان، ونمت سريعاً.

وفي الصباح التالي جاء إلى البيت سيّد وأخذ يفحص كل شيء: الأثاث الذي زال طلاؤه، والأرضية بلا بساط. والجدران العارية، والعوارض الظاهرة؛ وفي آخر الأمر، نظر إلينا، نحن، من الرأس إلى القدمين. كان شخصاً غريباً: في يديه رقش ووجهه موسوم ببقعة ملوّنة، تبدّت لي أنها تمثّل الجحيم. وشغل، دون أن يحيّي كل مقاعد البيت: على أحدها وضع قبّعته، وعلى الثاني مظلته، ثم منشفته، وقفازيه، ثم استقرّ هو في الأخير، فأكره والدتيّ أن تستقبلاه واقفتين.

بعد سنين عديدة من ذلك، كدت يغمى عليّ في مسرح، في لندن. كنت أحضر مع أصدقاء لي حفلة تنويم مغناطيسي، وداهمتني رؤيا غدا فيها المنوّم زائر ذاك الصباح، وأن إحدى والدتي كانت هدف التجربة. كان الديكور رماديّاً، مزرقّاً، ملتبساً مثل النور في بيت طفولتي. أمر المنوّم الوسيط بأن تحمل له صندوق مجوهراتها فأطاعت. ذاك الصباح حملت إحدى والدتيّ الصندوق

الصغير الذي يحوي مجوهراتها للزائر، كما لو تحت ضغط قوة عجيبة. لا أعرف عن الأمر أكثر من هذا.

عندما رحل الرجل سقطتا، مخذولتين، على الكراسي بعد أن أفرج عنهما، والصندوق فارغ على الركبتين، والدموع في العيون. كان الرجل مالك جبل التقوى كما قالتا: فكرت، أنه بيت إحسان يعين العائلات التي لها أطفال سفاح.

يبدو لي، إن والدتي، ربحتَا اليانصيب، في حوالي تلك الحقبة. وعادت المجوهرات المرهونة، وأصلحنا الميازيب كي نحتمي من الشتاء، ثم عدنا، رويداً رويداً، فقراء. الفقراء يدعون الدرهم يفرّ منهم، مثل لاعبي القمار السيئي الحظ، أعطينا صدقات كثيرة وتاجَ شوكٍ ومساميرَ ذهب لمسيح الخورنيّة، وخناجرَ فضةٍ إلى أم الآلام وسيوف برونزٍ مذهبة إلى رئيس الملائكة ميخائيل وأسهماً من نيكل إلى القديس سيباستيان.

وخلال كل أدوات التعذيب هذه بدأت امرأة أضلاعها كأسلاك الشمسية، شعرها جعد ورأسها رأس ميت شاعت فيه بقع نمش، بدأت تعلمني الشريعة المسيحية.

وتعلمت سريعاً التعليم المسيحي، وعند مناولتي الأولى، قدّمنا، للشكر، خنجراً جديداً للعذراء مريم وللسيد الحامل صليبه صليباً أكبر.

مازلت أحفظ عن مناولتي الأولى ذكرى حزينة: لم يتأثر الخوري.

## 3

وبعد أيام قليلة، في نفس الساعة، وفيما أنا عاكف على الباب، وقد اجتذبني خطر أن أسرق، ظهر الرجل الذي دفعني للفرار. لمحته منذ اللحظة التي بدا فيها بين الأشجار. عرفته. ذقنه، عينيه، طريقته العنيفة في دعس شيء هشّ

يتقصّف ألماً. رأيته ينحني ويوقد من جديد نيراناً. وامتزج الدخان بضباب المساء الحزين. وكان الهواء يباعد الأغصان الوريقة كي يعطي نظرة أكمل للبستان ولو أنها يمحوها ظلّ الغسق. كتل دون شكل صنع منها خيالي فيلة، وزرافات وجمالاً. كانت الأوراق التي على صورة حيوانات تتقطع في سواد يكثف قليلاً قليلاً على حلاوة السماء اللازوردية المرقطة بنجوم غريبة وصغيرة، مثلي. أسرّت لي، تلك التي أقول عنها أمي، بأن النجوم تنشد آفه ماريا والشمس، أبانا الذي... والحق أني منحت، تلك الليلة، في عظمة السماء، الاستماع إلى آفه ماريّاها، الحلو بصمته الذهبي، ما لم أسمع فيما بعد أبداً.

مددت يدي، وقد غمرتني رغبات لا أدركها، ناحية البستان كي أدخله معي إلى البيت علّه يقطف بعض تماثيله التيَ خلت أنها أشباح، أو بعض صنوبراته، أو ينابيعه، أو ممراته، أو بيوته الصغيرة المزينة بأزهار تتدلّى. ولقد قطّعت في رسم عتيق القمر ونجماً مذنباً وبوسعي أن ألصقها في سماء ذاك البستان الغارق في الظلمة.

ـ خذ القمر يا بستان، خذه، أعطيك إياه لقاء لا شيء، قطعته بمقصّ والدتيّ، فلا ترو لهما ذلك فقد توبّخاني: لم توجد المقصّات لقصّ الكرتون!

مددت يدي ناحية الشبح، ولم أصرخ لأني لم أكن قادراً على الصراخ: أحد ما قبض على يدي فأودع فيها زهرة. فحصت الهدية؛ لقد أمسك أحد ما بيدي كي يضع زهرة بين أصابعي. كانت حلوة كخرقة صغيرة معطرة، كان لها أريج غابة غامضة، مثل حضور والدتيّ الغائب وأنا أسمعهما من كل وجودي الطفلي تجيئان، ولو أنّهما لم يندّ عنهما أي صوت غير صوت حريرهما القديم، وهمومهما المالية، أو تلك الهموم التي لم أكن أدركها، الهموم التي تشق على قلبيهما، كما كانتا تقولان وهما تتضرعان إلى نجدة الله.

عدت إلى الزهرة وسألتها:

ـ لماذا تصمتين؟ هذا ليس مهماً؛ أعرف أنّك أتيت على ندائي وعلى أن أفي بوعد قطعته للبستان الذي أنت، يقيناً، رسولته. هاك، خذي القمر!...

ومن جيب البلوزة الصغيرة التي لم تكن تحوي غير قطعة عملة، أخرجت القمر كي أعطيها إياه.

وفكرت أن الزهرة تملك الآن القمر، ولطول ما فكرت وفكرت بنفس الشيء، أخطأت: القمر يملك الآن الزهرة! الزهرة تملك القمر! القمر يملك الزهرة! الزهرة، القمر، القمر، الزهرة...

كدت أجنّ من دوار رأسي بين الزهرة والقمر، القمر والزهرة، الزهرة والقمر، كخذروف، لو لم يقاطعني صوت ضخم جد أجشّ حتى لقد ظننته زئير أحد أسديْ مطرقتيْ الباب.

سألني الرجل الذي كان يوقد النيران في البستان: مَا اسمك؟

أجبت: «ما اسمي؟». كان خوفي عظيماً لما رأيت أنه يمصّ جمرة، كَرَاميلاً الشيطان، ويقذف الدخان من منخريه كقاطرة. وطمأنتني قليلاً أزرار قميصه. له أزرار، له قميص، فهو إذن ليس شريراً جدّاً، له قميص، أزرار... قميص... أزرار... قميص... أزرار... وعاودت الأمر كما كان مع الزهرة والقمر لما أخذ يتكلم الرجل الذي كان يوقد النيران:

سألني: «والزهرة؟»

ـ أعطيتها للقمر...

كانت سرعة جوابي على قدر الخوف الذي ألحّ عليّ.

أضاف مرتاباً: «والقمر أين هو؟».

ورفعت يدي إلى جيب البلوزة الصغيرة فيماأخذ يضحك في صخب.

وازداد قلقي، في انتظار صوت عربة الأجرة التي كانت تستقلها والدتاي أحياناً في العودة، إذا تأخرتا؛ ازداد على قدر الخوف الذي كان يوحيه ذاك الرجل. كنت أودّ لو أن والدتيَّ تعودان، ولو أنهما لا تعودان. لا أدري. كنت أرغب في أن أراهما تصلان كي تنقذاني من هذا الرجل الذي على هيئة شجرة بوجه إنساني. كنت أتمنى لو أنهما لا تظهران علّ هذا الرجل ـ الشجرة يستطيع

أن يقصّ علي أشياء أخر عن البستان. ماذا يوجد وراء ستائر الأوراق الضخمة؟ كيف كانت تتكون الأزهار ونوافير الماء؟ من أي شيء صنعت تلك الصور البيضاء ومنها الجماعات العاشقة التي تصطف في مكان أو آخر من البستان، وماذا كان يحرق في نيرانه؟

- هيّا، بتّ لا تعرفني الآن؟ أنا الذي أتيتك، مع ذلك، بالوردة أنا إيدوفيخيس...

وأعدت بصوت عالي: «إيدوفيخيس؟» وأجابني العجوز تقريباً أوتوماتيكياً: «نعم إيدوفيخيس...».

وسمعنا فجأة جري العربة في الشارِع المرصوف؛ ونزلت والدتاي وعيناهما حمراوان واختفى إيدوفيخيس في الليَل.

وبعد ثمانية أيام استطعت أن أثرثر معه من جديد. كان يقول لي لدى كل خطوة أيضاً هذا البريء، أو يقول: أيها البريء السعيد! وسألته أن يأخذني إلى البستان فرفض. كان الليل بارداً وهبت الريح وهي تصفر مغضبة.

وباتت صداقتي متينة مع إيدوفيخيس. واستطعت أن أعرف البستان ويدي في يده واصطحبني أحياناً حتى بيته. كان عنده صبيّ صغير أعمى. صرت أعرف الآن أن إيدوفيخيس، البستاني، يسحق الأوراق الجافّة وهو يمشي، وأن التماثيل من مرمر وأنه يوقد النيران كي يحرق النمل. الحوض وحده، كنت لا أعرف عنه شيئاً، فما كان يدعني أقترب منه لأن الماء خائن.

كان يحكي لي إيدوفيخيس - كنت ألفظها إيوفيخيس - قصص خنزير الهند الصغير مع دخان غليونه الذي صنع من قصبة ذرة حفرها، وربما من أجل ذلك كان يكرر قبل كل قصة: - هذه حكاية أخرى، الكلام مع الدخان حكاية أخرى...

كان الدون كلارو، كلارينيرو، والدونيا كلارا، كلارينيرا، عائلة من الكلارينيروس[42] أبناء عم النجوم ببريق ريشها، زَبَد لازَوَرْد رطب، وفولاذ

(42) شحرور أزرق في أمريكا الوسطى.

قوامها الرشيق المسقّي، ومناقيرها السوداء، الجدّ سوداء، وعيونها التي من تول ذهبي.

كان الدون كلارو سيّداً بخيلاً، يلبس سموكن أزرق داكناً، والدونيا كلارا زوجته طيرة طموحاً وابنتهما كلاريروسا، التي يبحثان لها عن زوج، آنسة فاتنة.

وقررت كلاريتا، والدون كلاريبيرو أن يقوما برحلة كي يسألا الدوق الكبير النصح: ممن يجب أن يزوّجا ابنتهما كلاريروسا.

وحملاها كصرة، من زغب طوقها، لأنها لم تتعود الطيران مدّة طويلة.

قال الدون كلارينو بصوته الشاخر كصوت قمع، لما صار قريباً من الدوق الكبير، كي يستشيره بزواج ابنته كلاريروسا...

- نعم يا شيدي... لقد شألنا الأزهار عن مشألة الحب هذه: فأعطتنا المفتاح: يحب أن نزوجها من طائر جدّ قادر...

وأشارت البوم، من منقار الدوق الكبير، على كلاريروسا، أن تربط قدرها الذي من فيروز بقدر الريح «إعصار»، الذي هو طائر جدّ قادر.

بحثاً عنه ذهبوا. أين كان؟ كان مشغولاً كما دائماً بغزو عوارض البيوت الرئيسية التي يطيّرها بأنفاسه كسنابل أو مقارع طبل.

قذفته الدونياكلارينيرا، وهي تؤوّد عجزها، مثل فتاة صغيرة، بقولها: أتيت أطلب يدك!

وبعد أن شرح كل منهما للآخر بغيته أجاب «الريح إعصار» أن «الطائر - غيمة - كبيرة» هو أقوى منه، وأنه هو الكفء زوجاً لكلاريروسا، فلقد سمع من يقول إنه يجب أن تكون حسير النظر، على شيء من الصمم وذا كرش، كي تكون زوجاً صالحاً.

وسأل كلارينيرو وقد أزعجه، بصفته زوجاً، ما سمع هنا. قال: وأين نجد هاجا[43]؟

- كم تدفع لي من أجل العنوان؟

- نحن فقراء، ليس لنا، غير هذا الكنز، ابنتنا التي جناحاها لازوَرْد وعيناها ذهب. أعطيك كلمتي، إذا كذبت يا أبراكادابرا ولم تحظ بجائزتك، عندما نجد الزوج القادر؟ أتكلم باسم زوجتي واسمي، هل سمعت؟

- مادام الأمر هكذا، هناك: يقيل «الغيمة الكبيرة» في أرجوحته التي من غيوم وراء تلك الأوراق.

وذهب الكلارينيروس فوجدوا أخيراً «الغيَمة الكبيرة» المخيف، الذي كان شبيهاً ببقرة، من قش وثفل قصب السكّر، وبوزه على قدميه، غيمة صغيرة وبرها كالبراز.

واستيقظ وهو ينفخ فحماً من منخريه قبل أن يعلن:

- ما يريد هؤلاء الناس؟

- جئنا نبحث عنك يا دون...!

- يجب أن أعرف لماذا لأني ليست لي ثلاث أقدام.

- ذلك أن السيد «غيمة كبيرة» أقوى الجميع، ويجب أن تتزوج منه كلاريروسا التي في زرقة بحر.

- إذن، وبكلمات قليلة: وصل على صهوة الهواء لصّان إلى بيتي...

- تتحدث عن حميك وحماتك!

- يا للشيطان، أنا سعيد بأن تكونا حماي وحماتي! وبما أني متنبّئ أصل رأساً إلى فصل الخطاب: لا أظن أني على شيء من الحظ في هذه اللعبة،

---

(43) هذا.

ولديكم الرعد، فهو أقوى وأفضل منّي.

كان الدون رعد لا يرى أبداً، فهو أكثر من حسير؛ خرج من غيمة باردة في ضجة مدفع عظيمة.

ـ بوم، بوم، بوم، ماذا يراد مني؟

واهتزت جميعاً، دونيا كلاريتا خائفة، قبل أن تكلم الذي كان أقوى بكثير من «إعصار» ومن «غيمة كبيرة».

كان اسم الآنسة يرن قاسياً، بل ثقيلاً في حنك «رعد».

ـ أنا، الذي صوتي قاس وكلمتي وقحة أتزوّج من فتاة صغيرة اسمها لا يفهم؟ مع ذلك أنا أقل كبراً من «البرق» الذي يرمي ذرور الذهب عندما تضطرب العناصر.

واستمر الدون كلارو ونصفه الأمين والآنسة ابنتهما في طريقهم.

ووجدوا السيد «برق» على رأس جبل، في همرات[44] الربيع.

وتوصلت كلاريروسا إلى أن تقول بلسانها الصغير كوريد: «احذري ماما!» لكن متأخرة، بعد أن شويت كلارينيرا.

ـ أيها السيد «برق»، أرجوك، لو زدت قليلاً لأعميتنا!

ـ كلماتك، يا سيدتي تجيء من الأرض، ولو أن الريش من ملك السماء، مرحباً بكم إن كانت سلماً نيّاتكم ولتحي الحرب إن لم تكن كذلك!...

ـ من السماء أتيناك، مادمت أنت القادر على كل شيء، بابنتنا كلاريروسا... وأضاف كلارينيرو: «العرس هو هذا اليوم!».

ـ أعرف ـ نياتكما، أنتما الاثنين. أنا صندوق ذهب، السماء كلها صندوقي الحديدي، أملك كثيراً، ومن دون أن أبالغ بثروتي، أستطيع القول إني

(44) الهمرة: الوابل الذي فيه برد.

لا أعرف كم أملك: من القدم إلى الرأس أتوهج ذهباً... فهل تتزوج كلاريروسا مالي أم حبّي؟

ـ فلتجب هي يا سيدي!

قالت كلاريروسا: «أنا... أنا يجب أن أتزوج من الطائر الأعلى!».

وأجاب الدون كلارينيرو فيما يعلو القمر: «وهل يوجد علو غير الثروة الكبيرة!».

ـ ذاك ليس علوّاً بل خداع حواس: ثروتي وممتلكاتي ليست سوى ما هي كل ثروة: بريق معدن عابر...

وقفز سيد الصاعقة فقال:

ـ هو ذا أنا! أنا الطائر الأقوى، أحوّل كلّ شيء إلى رماد، لا شيء يقاوم غضبي. ما هو غضبي؟ انظروا، سوف أريكم...

في أعلى صنوبرة كوي... كوي... كوي... سمع قصف.

وقفز «سيد الصاعقة» غاضباً كريشة من نار، فجرح الشجرة، مزقها إرباً، ثم ارتطم بالحجارة.

وطار الطائر الصغير السماوي في رقة بعيداً وهو يغنّي قصفاً كثيراً، يتبعه الكلارينيروس على أخفّ ما يستطيعون.

أخيراً أوقف طيرانه ورأت كلاريروسا التي في زرقة بحر، السماء تفتح لها عندما قال لها: «أحبّك... أنا كلارين كلارينيرو. أنا أقوى من الصاعقة، ومن البرق والرعد، الذي هو أقوى من طائر الغيمة الكبيرة والريح إعصارا!».

احتفل بالعرس في الكنيسة. وبقيت هي وهو وحيدين على أرجوحة زرقاء من فولوبيليس[45]. وبدلاً من أن يتكلما عن الحب، تحدّثا عن ألعابهما. منمنمتان لازورديتان، في يوم كأنه مبارك.

---

(45) نبات يطلق عليه بالعربية الدودية الأرجوانية.

# الترغلّة الخضراء

الدونيا بالوميتا، ترغلة حقيقية، والدون بالومون الذي منقاره مدبب بَنَيًا ذات يوم عشهما في بويت في وسط فناء بيت كبير.

أحست الدونيا بالوميتا بمغص، فنقرها الدون بالومون بون بون بون! ثلاث نقرات صغيرة، على بطنها الصغير الذي بصورة برميل. فباضت بيضة صغيرة، بيضة جدّ مدوّرة وجدّ بيضاء.

وأخذت الدونيا بالوميتا تحضن بيضتها وحمل الدون بالومون إلى منقارها الغذاء: حبة ذرة طيّبة من هنا، نتفة خبز من هناك، ودائماً قَبلة صغيرة.

يا للعنة، أي تشنّج هذا!

من البيضة المدورة ولد حمامة[46]. فمسّدته الدونيا بالوميتا بمنقارها وساعده الدون بالومون على الخروج.

وأرسلا في دعوة العرّابة - كو - رو - كو - رو - كو، من أجل العماد. وكلّما أيضاً العرّاب كو - رو - كو - رو - كو! وتلا العماد حفلات عظيمة وزيارات طائرة ودعوات. وكبر الطفل حتى لقد أخذه أبوه، الدون بالومون، ذات يوم إلى أغصان شجرة صغيرة.

صاح بالومَين: «بيضة، بيضة صغيرة، أنا لم أعد طفلاً، أريد أن آخذها لأمّي كي يكون لي أخ صغيرا».

وأجاب الدون بالومون، في جدّ كثير، الحمامة الصغير:

- هذه ليمونة وما أفعل بولدٍ قشره مُرّا!

وبكى بالومين، كما يبكي الأطفال الذين يؤخذون أوّل مرّة للمدرسة. وجاء عرّابه يرى كو - رو - كو - رو - كو ماذا يجري فعرف أن بالومين، ابنه

---

(46) حمامة تقال للذكر وللأنثى والتاء هنا ليست بالضرورة للتأنيث.

بالعماد، يريد أن يقطف الليمونة. وأحيطت عرابته أيضاً كي - رو - كي - رو كي - برغبته.

وأصغت الدونيا بالوميتا، التي كانت في الكنيسة، إلى الصلاة من أعلى البرج، ورجعت مبكّرة، لأن العرّابين والدون بالومون كانا يريدان إعطاء درس للسوقي الصغير.

وهزّت الدونيا بالوميتا جناحيها الرطبين اللذين من نسيم وقالت، وهي تبحث برقة عما إذا كانت توجد قملة أو برغوث في جناح الدون بالومون الأبيض:

- دون... دون... ماذا يجري للبكّاء الصَغير؟

- إنه صبي رذيل لا يصغي لي أبداً! كلمته عرّابته، وعرّابه كلّمه ولا فائدة!... يريد أن يولد له أخ صغير من هذه الليمونة!

- شكراً لله، يا صغيري، من هذه الليمونة لا يمكن أن يولد أي أخ صغير!

المدرسة... الحياة... بالومين جيرانيوم، ذلك كان اسم عائلته، اسم غريب. أصدقاؤه الآخرون كانوا يسمّون بينافيدس، مونتيخو، جارسيا... صار الحمامة الفتى الذي بلون الرصاص، وعينه سماوية، وقائمتاه حمراوان بقشور، ريشهما على شكل جزمة، صار سيّداً فتى يحمل ربطة عنق، وعصاً وقبعة.

وصل إلى البيت وقد أضنى جناحيه المسافة الطويلة التي قطع.

قالت له أمه:

- ماذا يجري؟ ماذا يجري؟ خرج أبوك...

- آه! يا أمي، وجدت عشّاً فيه حمامة صغيرة بلون العنبر، حمامة صغيرة خضراء ابنة ليمونة!

صعقت دونيا بالوميتا لما سمعت هذا الخبر العظيم؛ وفي نفس اللحظة سمعا بون بون بون! الدون بالومون. كان عائداً من الحقل متعباً بعض الشيء.

ركّز نظارتيه كي يصغي بانتباه، فهو يفهم إذا نظر وحدّق أفضل منه إذا أصغى لما يقول في فرح بالومين جيرانيوم. قالت الأم: «دون، دون، دون... ولد من ليمونة!».

وصاح بالومين: «وهي خضراء كلها».

أجاب الأب: «ليس في هذا شيء غريب».

قاطعته الأم: «تا تا تا!».

وتدخل بالومين: «كادت تعضّني!».

- من أجل هذا لم أحب أن أسمع أي شيء عن طفلٍ من قشر أخضر.

## قلب الأفوكاتو

خلق إذن بيريكويتو[47] الأخضر من ليمونة دونيا بيريكا ودون بيريكون.

منقارُهُ قاطع كفتّاحة علب، وقائمتاه لهما براثن، وبدأ بيريكويتو بإخراج مخالبه والبحث عن حجارة يشحذ عليها منقاره كمسمار مدبّب.

عمله كان أن يتسلّق ويعضّ. هنا كان يصعد إلى أعلى غصن ميت، هناك كان ينقر ثمرة بمنقاره ويصيح، زاعقاً:

- أنا بيريكو، الببغاء الصغير تيكو - تيكو، أنا بيريكو أطير على هواي، أتسلق كقردا...

أعلن أب بيريكو قائلاً: «تلك هي النار!» وهو يستعجل بأقصى طاقة جناحه. فقد فتحت الدونيا بيريكا والدون بيريكون ابواب اجنحتهما الخضراء وقدفا بجسميهما اللذين نفد صبرهما إلى الآماد.

---

(47) تصغير بيريكو: الببغاء.

بيريكويتو وحده كان يطير بطيئاً.

ـ أسرع، يا صغير، ألا ترى الحريق؟

الأخضر يحترق! الخضرة تحترق! كل شيء يحترق!

وكان يقول الببغاء الصغير بين أسنانه:

ـ أنا لست جباناً!

وصل الأبوان إلى هضبة أمينة قبل وصول النار. وغلغل الدون بيريكون، وقد تعرّق جناحاه، منقاره في ريش الدونيا بيريكا الأخضر وقبلها قبلة.

نجا الثلاثة من الهلاك بمعجزة. ودام الحريق شهراً. فما عاش بعده في البرية غير أشجار الأفوكاتو ذات الأغصان العالية المثقلة بالفواكه.

وفتحت الماما بيريكو عينيها فيما زوجها يقول لابنيهما:

ـ أعرف، بالتجربة، أن العلم يختبئ في الأفوكاتو. وأنت مطيع فاحفظ منقارك من أن تضعه فيه.

ـ حسناً جداً، يا بابا، لكنني أود لو أعرف... ما هو العلم؟

ـ سوف تعرفه عندما تصير أشدّ اخضراراً!

ـ نعم يا بني كن صبوراً.

وتباكى بيريكويتو قائلاً: «يا بابا بيركون، أريد علم الأفوكاتو من أجل منقاري الصغير».

وأسقطت هزّة أرضية ثمر الأفوكاتو فانتفخت رعباً، دونيا بيريكا، كملفوفة.

وزمجر بابا بيريكون: «لا تتفوه بالسخافات! علم الأفوكاتو ليس للأطفال!».

وبكى بيريكويتو: «يا بابا بيريكون، أنت لا تصنع شيئاً يفرحني! أريد علم الأفوكاتو من أجل منقاري! لا تكن خبيثاً! لا تكن سيئاً!».

وبعد أن قال هذا طار حتى عشب مرج طريّ، يبدو فيه الأفوكاتو الذي سقط، أكثر من ثمرة، ببغاء.

وتمددت الدونيا بيريكا، التي طيرانها أسرع، على الأفوكاتو وتظاهرت بالنوم. وضعت رأسها تحت جناحها وخبأت قائمتيها تحتها.

قال بيريكويتو: «أنت من عائلتي، غير أن هذا لا يمنع من أن أنقرك نقرة».

ـ هيا، إذن!

ـ الأفوكاتو يتكلم؟

تراجع، بيريكو خائفاً.

ـ يتكلم!

(أمه هي التي أجابت).

ـ هذا الصوت يزعجني! أنا لا أرى منقارك! قل سريعاً، قل... أين إذن علمك؟

ـ في روحي المدوّرة، مدوّر هو العلم...

ـ أفضل لك أن تعرف أني لست أبله!

ـ وأنت... أفضل لك أن تعرف ألا شيء يعدل الحكمة!

ـ إذا لم تقل لي كل شيء، سأنقرك حتى أدميك!

ـ يا للببغاء الحيوان!

ـ على هذا أنا متفق معك: يا محامياً من نبات!

ـ لكني أيضاً صديقك...

ـ القلب المدوّر يزعم أنه صديقي؟

ـ قرّب أذنك! اسمع خفقان قلبي المدوّر.

كانت الدونيا بيريكا تضحك سرّاً. كان هنالك شهود: ستّ نملات سود وذبابة كبيرة.

وسأل بيريكو: «أين إذن قلبك سيدي المحامي؟».

- في الوسط، قلبي في الوسط!

الثمار لا تتكلم. وغلغل بيريكويتو، وهو نصف مرتاب، رأسه في جناحيه بعد أن نشرهما واستغلت بيريكا عدم انتباهه فطارت؛ وبقي وحده مع الثمرة التي سقطت في البريّة.

- لم أسمع أبداً من قبل أن الأفوكاتو يتكلم. أما إذا كان هذا يتكلم فليجبني!

وأخذ بيريكويتو يروح ويغدو دون أن تتحرك الثمرة. وحين أجهد أخيراً نقرة.

لاشيء. لم تقل الثمرة أية كلمة. نقرة أخرى، أيضاً أخرى، مادام لا يجيب.

وثقبت قشرة الأفوكاتو القاسية آلاف الثقوب كقمع المرشّة، آلاف وآلاف الثقوب. عزم بيريكويتو ألا يألو جهداً حتى يضطره للكلام. وهو لم يعد ببغاء صغيراً، انقلب إلى كاسر.

وأخيراً، تدحرج، من صمت الأفوكاتو الأخضر، نواة بلون الشوكلاته.

- القلب المدور! هتف بيريكو وزرع فيه منقاره؛ لكنه أرسل بنفس الوقت صيحة لأنه ارتطم بصفحة قاسية من خشب، أو معدن أو غرانيت...

- من أين آت أنت، تكاد لا تستطيع الطيران...

- يؤلمني رأسي، يؤلمني منقاري!

قالت بيريكا: «بيريكويتو اللطيف، يا بني الحبيب، تعال أعالجك بريقي».

ـ آي، أي، يا ماما ضربت منقاري بنواة!

قال بيريكون أبوه: «أي، أي، يا بيريكويتو، أردت أن تعرف العلم، خذ الدرس إذن. الأفوكاتو قلبه مدوّر، وكذلك العالم، وهذا يحدث لمن يدسّ فيه منقاره».

## الثوبيلوته[48] البيضاء

ـ من يضرب بهذه القوّة؟

ـ ثوبيلوتان.

وانفرج باب السماء بطيئاً. باب السماء صار ابتسامة.

صاح بهما الحارس القاعد تحت بوابة كبيرة: «ادخلا، يا سيديَّ».

مسحت الدونيا ثوبيلوتا قدميها قبل أن تدوس البساط، وزوجها الشبح دون ثوبيلوت، كذلك فعل.

هتف الطائران لما رأيا البواب ذا الذقن والجزمة: «دون بيروا!...»

أجاب القديس بطرس: «أنا بطرس... جعلني الربّ بواباً. بطرس الصياد...».

ـ نريد أن ندخل!

ـ لكن يجب أن تدفعا!...

ـ نحن نحمل تبغاً، قالا وقد همّا بفكّ محرمة قذرة حملا له فيها تبغاً ناعماً ثم همهمت الدونيا ثوبي قائلة: «هل الله المقدس هنا، يا بوبي؟».

---

(48) نسر صغير في أمريكا الوسطى.

وصاح الثوبيلوت بصوت فأر: «ما يفعل هذا البوبي هنا، وهل اسمه بطرس؟».

ـ عفوك يا ثوبيتو!

ـ عفواً، يا ثوبيتا!

واختال الدون ثوبيلوت والثوبيلوتا فنفخا أوداجهما، وقالا معاً:

ـ أليس الله المقدّس هنا؟

وأجاب البوّاب وهو يشمّ بيده التبغ الذي برائحة التين: «كما في كل مكان...».

ـ لكن أهو في السماء؟ جئنا كي نكلمه.

وهزّ البواب العجوز رأسه: «أكرّر ما قلت! كيف يمكن ألا يكون فيها؟».

وجاء الملاك بستوليته وتحركت الغيوم في مويجات وموجات. كانت له قدمان فحسب، حتى إذا مشى صارت مائة قدم.

وسأل الأحمق الكبير الدون ثوبيلوت إذا كان الله يرى وأجاب الملاك بستوليته، وكأنه يكلم نفسه، أنه موجود هنا دون أن يرى. الله غير مرئي.

واسودّت الدونيا ثوبيلوتا أكثر وجرضت بريقها، فيما قفز الدون ثوبيلوت قفزة إلى وراء. فاستوقفته.

ـ أين تذهب؟

وأعطاهما الملاك بستوليته هذا التعليم:

ـ حيث ترى النار، لا ترى الغابة... من يرى الغابة يلاحظ القبح والله جدّ جميل، يجب أن نرى النار...

قالت الدونيا ثوبا: «هيّا بنا، ولسوف نؤتى النجاح!».

ورافقهما الملاك؛ حتى إذا رأى الثوبة النار فتحا أجنحتهما كصليبين، مثل نخلتين وتوجها إلى الله:

- كرو - ترو - أوا... كرو - ترو - أوا... كرو - ترو - أوا...

بؤس أن تكون أسود. حداد في الجسد، حداد في الروح، حداد في الجناحين. يا رب، ألبست الطيور الطيبة بياضاً، لكن الثوبيلوته ليست طيوراً سيئة كالبوم. إننا نتألم من هذا السواد الأسود، فالرأس أسود، والجسد أسود والجناحان سوداوان!

وأجاب الربّ، وصوته يذكي النار كمنفاخ: «إني أعرف ما أفعل؛ فأنا الله، وأنا أصنع الجميل: اذهبا إذن، منذ الآن بياضاً ترتدون، إنما تتعبون! سوف يتعذب جنسكما من حوادث طيران خطيرة: وداعاً أيها الطائران المسكينان!...»

- كرو - ترو - أوا... كرو - ترو - أوا... رحل الدون ثوبه وثوبته وهما يصيحان كذلك من رعب ومن فرح؛ فقد عادا من السماء بثياب جديدة، ثياب بيضاء.

ونعق ثوبيلوته الذي يبدو وكأنّ عنقه من أوراق ذرة: «فلنطلب ولداً!».

وأجابته حالاً الدونيا ثوبيلوتا: «أفضل أن نقبع في العش، لأني أتيت بالصغير، في حوصلتي، من السماء».

وولد ثوبيلوتيتو أبيض جميعاً مثل كتكوت وذهب الدون ثوبيلوته يروي الحدث في كل مكان إلى كل أمه الثوبيلوته.

وذات يوم انحنى الملاك بيستوليته على باب السماء كي يرى ما حدث للطيور السوداء فرأى هو والقديس بطرس الثوبيلوته البيضاء تمرّ كغيوم ملائكة بلا أذرعة.

كان يوم موتى عند الثوبيلوته: فوضى وزحام، الثوبة ضد الثوبة، فمرضت جميعاً. أحدها كان يسقط أحدها مدوّماً، والآخر كورقة، كانت تسقط من السماء وقد تهدلت أجنحتها، من السماء الزرقاء على الأرض القاسية. كانت، إذا طارت عالياً، لا يرى بعضها بعضاً في أشعة النهار الساطعة لأنها بيضاء.

صاحت الأرامل، والنسور، والبوم عند جثث الثوبيلوته: «لأنها كانت بيضاء، لأنها كانت بيضاء!».

- كرو - ترو - أوا كرو - ترو - أوا كرو - ترو - أوا

واعترضت سيدة ثوبيلوته قائلة: «أوقفوا الضجّة؛ سوف نذهب جميعاً إلى السماء كي نقول لله أنّه حسناً صنع، وأننا نريد أن نبقى سوداً كي نطير حتّى الشمس.

وزعقت الثوبيلوته جميعاً:

- كرو - ترو - أوا... كرو - ترو - أوا... كرو - ترو - أوا...

- ثوبيلوته أبيض، ثوبيلوته ميت! ثوبيلوتهَ أبيض، ثوبيلوته ميت!

وأعار الله أذنه لالتماسها. لكن لابد من عقاب، عن العصيان، حتى ولو فوّضت بتبديل ريشها، قال الملاك بيستوليته.

وسجل القديس بطرس، في كتاب أسود:

- سوف يكون الثوبيلوته، أبناء الثوبة بيضاً، بيضاً، كي يتذكر آباؤهم دائماً، عندما يرون صغارهم، ألا شيء أحسن مما يصنع الله؛ سوف يكونون ثقلاء كالنسور، رائحتهم بشعة!

# آلة الكلام الصغيرة

كانت فيليسيانيتا لارانا[49] تبدي تحت خراطتها فخذيها اللذين من لحم أخضر؛ ظلّ ظلٌ في الماء؛ كانت مضطجعة على ديوان ورقة نينوفر، ورأسها على مخدّة بصل لا تندّ عنها رائحة بصل بل قلب ثمرة باديان كنجمة.

---

(49) ضفدعة.

فيليسيانيتا لارانا كانت ابنة ضفدعة أخرى، هي المدعوة دونيا فيليسيانا أروم، أرملة هادئة.

ـ رانيتا، يا أسعد الكل، لأنك خضراء وكسول ـ كانت تقول لها التويجات التي تفتحها الريح، ريح الأرض، وريح الحبّ على الماء. وكانت فيليسيانا لارانا، فيليسيانيتا اللطيفة، ترى دون أن تستفيق، تحت جفنيها المجعّدين، كرتي عينيها اللتين من كافور.

ـ رانيتا، يا أسعد الكل، لأنك خضراء وكسول!...

لكنّ من يحلم لا يحلم إذا لم ينظر إلى القمر وهو يسبح على قفاه. ولقد رأته فيليسيانيتا مثل حُقة نقود[50] من فضّة.

قالت فيليسيانيتا لنفسها: «لا شيء يعدل الذهب المصمت، هذه الثروة الضخمة ثروتي، ثروة القمر الصغيرة، سوف تخدمني في شراء آلة للكلام».

وذهبت إلى المدينة.

سألت هنا: «هل عندك آلات للكلام؟».

ـ هل عندك آلات للكلام؟ سألت هناك، وفمها كقلب، والمظلة على كتفها، والروب يكشف عن ربلة ساقها، وقبعتها مزروعة على رأسها.

ـ آنستي الصغيرة، لا يوجد عندي؛ إن أردت آلة للكتابة، فنعم، أو للقراءة، إذا أحببت أن تري...

وبعد أن مشت طويلاً، لكثرة ما سألت عن آلة للكلام، وجدت واحدة في السوق، وقررت من دون أن تساوم شراءها. وكان لديها ما تدفع فقد سحبت من القمر دراهم تبدّدها.

وأصيبت الدونيا فيليسيانا رانا وجدّها دون رانكوال بعطاس قاتل.

---

(50) في بعض البلدان العربية تدعى مطمورة وفي بعض قجة وهي وعاء مقفل ومثقوب يخبئ فيه الأطفال نقودهم.

قال الدون رانكوال وهو يتمخط بمحرمة كبيرة من حرير: «هذا أسوأ من رشح».

واستأنفت فيليسيانا وقد قبعت تحت مظلّة ضفدع: «وقالت فيليسيانيتا؟... قالت إنها ذاهبة إلى السوق؛ كان يجب أن ترجع على الوقت، ونحن لسنا صفراً... لي أنا...»

ـ نعم لك أنت...

ـ لي أنا قالت إنها ذاهبة تشتري آلة للكلام.

ـ للكلام؟ وارتجف دون رانكوال.

ـ أعطيتها الإذن.

ـ تريدين أن تقولي... للكتابة!...

ـ أفضل أن ننتظرها فهي لن تتأخر.

ـ أحس أني على أهبة الموت...

ـ لا تبصق، يا رانكوال، لا تبصق!

ـ إنك لا تبيحين لي حتى البصاق!

ـ لأنما قد تولد ضفيدعة، ويكثر الأحفاد، ويكثر العمل!

كانت تتحرك في الماء البلوري أسماك مختلفة الألوان وعظايات وليدة، وفوقها طيور مناقيرها كأغماد خناجر؛ والدون رانكوال ووجع الشقيقة، وفيليسيانيتا أروم، التي جاءها اسم أروم من الروم الذي كان يشربه ذووها.

ـ من أين تأتي هذه البنيّة؟

ـ من سوق سان بلاس!

ـ وماذا تحملين لنا؟

ـ سكاكر!

ـ وماذا أيضاً؟

وظلت فيليسيانا، الدونيا رانا، صامتة، لأنها كانت تتنفس الهواء الرطب من فمها، وكأنها تكلّم نفسها في صفير قازب[51] صغير.

وعطس الدون رانكوال قائلاً: «وماذا أيضاً... أريد أن أعرف، فما قالته فيليسيانا يوقظ فضولي، ولو أني لست امرأة؛ إني أتحرق لمعرفة ما إذا وجدت في السوق، آلة للرؤية».

وتلفظت دونيا رانا قائلة: «اشتريتها في المرّة السالفة، آلة الرؤية، التي تخدم أيضاً في القراءة؛ ولا تزعل، فأنت تستعملها في قراءة جريدة فقاعات الهواء».

ـ لم أقل أنا شيئاً، أنت لم تقولي شيئاً، فيليسيانيتا لم تقل شيئاً... عذراً عن بلاهتي، لكني عجوز. ما تلك إذن؟

ـ اشتريت، يا جدّي، آلة للكلام، وما سمعت، كنواح، هو...

ـ إنه النابض الذي يحدث الصوت! آلة النابض التي تتكلم؟ ما تحمل لي الشيطانة، جدتك الضفدعة، والضفدع الذي مات... لكن... آه! يا إلهي، اسمع أيضاً صوتاً! قالت الدونيا فيليسيانا وهي تحك رأسها بيدها الصغيرة الضفدعية: «إنها جهاز حديث».

ـ سوف أذهب إلى الجحيم إن لم تقولوا لي ما هي!

ـ آلة للكلام، يا جدي...

وهمهمت السيدة الضخمة، ربّة البيت ذات الذقن المزدوجة: «إذن... لللإذن».

ـ يا إله السماء! لقد اشتريت، لضياعك، بوقاً يخرج أصواتاً تسبب سوء الهضم!

---

(51) حيوان برمائي كالضفدع.

وتذمرت دونيا فيليسيانا قائلة: «يا لها همّ هذه البنت!».

ـ في عيد السرخس أردنا، نحن مائة وعشر ضفادع، أن نزاحم في كورس إحدى هذه الآلات.

ـ وما حدث يا جدّي؟

ـ ما حدث؟ مرضعتك نصف رضاع، وهي ضفدعة ربّتك، انفجرت لشدة ما صاحت أو أو أو، ككيس امتلأ كثيراً.

قالت الدونيا فيليسيانا:

ـ يا لها قصّة! تلك الضفيدعة الخلّابة، نصف زهرة، ونصف شبوط[52]، التي ماتت أخيراً في حشرجة، دون أن يتوصل الطبيب إلى أن يخرج من حلقها لـ «إن إن إن» الذي كان يخنقها. لقد سدّ منخريها، وشدّها من قدميها، لكن لك كله كان دون فائدة. لقد ماتت من الـ «إن إن إن» ومن هنا جاء اسم المرض الذي يدعى إنفاركتوس أو السداد.

ـ والدونيا سيرجيا توربينا، ذات الأحد عشر صوتاً والخمسة عشر صدى، من قدّام ومن خلف التي ماتت وهي تقول ليرو: ليرو ـ ليرو ـ ليرو ـ ليرو...

وسألت فيليسيانيتا: «والجهاز؟».

ـ آه! هذه البنية، أفضل لها أن تسكت!

ـ آه، يا أمي، ما ألطفك!

ـ كان الجهاز لا يقهر؛ تلقينا نجدات من ضفادع حديثة الولادة، ومن أخريات أكثر تدريباً، لكن آلة لوسيفير هذه كانت تخرج من الضجّة ما لا يبيح لنا أن نسمع تلك...

ـ هيا، أرينا ما اقتنيت، يا ابنة قلبي وحفيدة الدون رانكوال، الذي يعرف الخير والشر.

---

(52) نوع من السمك.

ـ إذا كانت نفس الجهاز فهي مزعجة؛ ووجب عليك أن تذهبي وآلتك إلى مكان آخر...

ـ مع آلتي للكلام؟...

ـ مع آلتك للكلام... اخرجي من هنا وهذه الكركوبة من تنك ومن نابض!

ـ سأريكما إياها، علَّ الله يشاء فلا تعضّكما، ولقد كلّفت كيس ذهب بحجم القمر.

وصمت الدون رانكوال والدونيا رانا، فيليسيانا الكبرى مبهوتين، ثم صاحا معاً:

ـ لكنه، وربّي، ببغاء!

واستخلصت فيليسيانيتا أروم النتيجة في ضحكة مطنطنة:

ـ آلة للكلام لها قلب بدل النابض!

## 4

وأخذني إيدوفيخيس، ذات صباح إلى بيته عبر البستان المجنون فراشات وتم لي فرح مقابلة ابنه الصغير الأعمى. فرح؟ بلى فرح أن أعلمه، كل ما لا يرى، بكلمات دقيقة، ولو أنها في غالب الأحيان.غريبة، حصاد خيالي، لأني ما كنت أستطيع أن أدع أعمى يفاجئني لما يسألني ما هذا وما ذاك. كان عالم صديقي عالماً غريباً، طفولياً، اخترعته أنا، لا أدري غير أني أحسّ بالندم الآن لأني لم أصور له الأشياء أكثر فرحاً، بل لأني اندفعت للسواد أحياناً.

كنت أصطدم غالباً بمعضلات خطيرة. الألوان مثلاً. كان يسألني أزرق ما هو، كيف هو. وكنت أجيبه الأزرق هو أزرق. لكن كيف... كما يجب أن

يكون: أزرق. وكان الأعمى الصغير يصمت، قليل الاقتناع. من أجل شرح صورة الأشياء له وجدت طريقة مسلّية، أريد أن أقول... تسلّيني. كنت أقطعها في علبة. مدور القمر والشمس، مدبّبة النجوم. كنت أقطع بيوتاً، وصلباناً، وبقراً، وكل شيء. لكنني في نهاية المطاف، بعد جلسات التقطيع والشرح الصبورة، كنت أجدني خائباً؛ كنت إذا سألته، بعد أن أعطيه القمر كي يمسك به بين يديه، يجيبني: بقرة. ولسبب أجهله، كان الأعمى الصغير إذا لمس صليباً قال: إنه بيت؛ وإذا لمس بيتاً ظنّ أنه القمر؛ والقمر يحسبه بقرة، والبقرة نجمة. وكنت أجيبه، نعم هذا صحيح. وكان يهتف متنهداً، كم ينبغي أن يكون جميلاً هذا الصليب الكبير من ذهب، فيما هو يفكّر بالقمر. ويضيف وهو يلمس النجوم، كم حلو الانطباع الذي تعطيه هذه البيوت عندما نستطيع رؤيتها. ويخلص إلى القول وهو يجسّ الصليب، يا لها بقرة جميلة! كل شيء كان عنده مقلوباً، ولا أدري بأية نعمة غريبة شيطانية، كان يحسب تلميذي الأشياء على غير ما هي عليه.

وكنت أغمض عيني أحياناً وأردد مثله، يا للقمر، يا للبيوت، يا للنجوم، وأنا ألمس صور البقر المقطعة، والنجوم، والبيوت.

وبعد تأملات طويلة ومحاولات عديدة غير مجدية توصلت إلى أن أشرح له كيف تكون الشجرة. أوقفته وذراعاه في الهواء. كان إقناعه صعباً. ومن أجل أن أشرح له كيف تمشي الكلاب طلبت إليه أن يمشي على أربع. لم يقتنع أيضاً.

الطيور؟ سألني ذات يوم. أجبته أن هذا سهلٌ؛ وقطّعت في حذق طائراً من ورق حرير، طائر طيارة ورق لها شرابات بدل الجناحين ووضعتها في يده. هل تحسّ بها؟ نعم... إنها تطير، فهي لا تزن كثيراً وتصعد في الهواء. والهواء؟ هنا فشلت. الهواء... هو الذي في داخلنا لما نتنفّس. آه نعم، الدم... بلى قلت له، وأنا نادم، كي أخلص من المشكلة. ودفع الأعمى الصغير إحساسه بأنه يسبح في جو من الدم إلى أن يرتجف. وبعد تنهدة قال: هكذا عندما تطير

البيوت، والبقرات الصغيرة، والنجوم، والصليب، والكلاب والقمر، تكون طيوراً.

كنت أقضي معه ساعات كثيرة لذيذة فآل بي الأمر إلى أن أحببته كشيئي، كلعبتي. كنت أقبّله وأضمّه بين ذراعي مما كان يمنح الأعمى الصغير فرحاً عظيماً حتى ليرتعش ويهتزّ جميعاً. وكنا نصمت بعد عناقنا. وكنت أحياناً، في الوقت الذي يبدو عليه أنّه استغرق في اللعب، أسمعه يتنهد. كان لا يعرف أبداً لماذا، ولو أنه يحدث له أن يجيبني: لأني أعمى، لأني لا أعرف أين أمي، لأني لا أقدر أن أرى أبي، لأني لا أقدر أن أراك أنت. وكانت كلماته تثير شيئاً حزيناً، فيّ، غير أني كان يسعدني أن أسمعه يقول بأنه يتنهد لأنه لا يستطيع أن يراني.

كنا ننتظر القمر في البستان. وكان صوت الريح في الأوراق يصنع موسيقى من حلم وكانت الغيوم، عالياً جدّاً في السماء، ينحني بعضها على بعض كأرواح متعبة.

كان يقول لي: «أين هي الغيوم؟».

ـ في السماء.

ـ آه، صحيح، صحيح الغيوم لها صور بقر، وبيوت، وأشجار، وناس، وجند ذاهبين إلى الحرب على وقع طبل الشمس، هذا ما يسمع في الأشجار، طبل الشمس!

وظللنا زمناً طويلاً صامتين، يمسك أحدنا بيد الآخر، ثم سألني:

ـ أين نحن؟

ـ في البستان... ألا تحسّ بذلك؟

ـ نعم، صحيح، في البستان، البستان كالشمس.

ـ هل تودّ لو ترى البستان؟

ـ لا، أنت الذي أودّ لو أرى. كيف أنت؟ هل أنت مثلي؟ أو لا ترى أنت أيضاً؟ أو هل روى إليك أنت أيضاً أحد ما أشياء العالم وهو يقطع الأشكال؟

اقشعرّ جسدي.

ـ ليس حزيناً أن تكون أعمى، هذا ما يقوله أبي، لما يكون لك أصدقاء مثلك، يروون لك كيف تكون الأشياء. هنالك أناس جهلة، ولو أنهم يرون، يرين عليهم بؤس أنهم بلا أصدقاء، بلا أحد يشرح لهم العالم.

صمت وتنهّد.

ـ أتنهّد لأني لا أستطيع أن أرى أمي التي ليست في البيت، لكنها لو كانت هنا، لظلّت صورتها غائبة عني. ما أحسن حظّك لأنّك تعرف أمّك، لأنك رأيتها حتى التعب، حتى لتجدها بشعة، أو جدّ جميلة... هل أعرف...

كان الجوّ الفاتر يمجّد إيراق البستان. ودون أن أجيب على أسئلته، كنت أرافقه، محني الرأس، رطب العينين بدموع حلوة كنسيم المساء، حتى بيته ثم أعود إلى بيتي فأصل في نفس اللحظة التي ترجع فيها، في ثياب سود، تلك التي كنت أظنها أمي وتلك التي كنت أظنّها أختي.

كنت ألتجئ حالماً، إلى أظلم زاوية. عماي كان حزيناً، أحزن من ذاك... كانت لي عينان ولا أستطيع أن أقول: رأيت أمّي. ليس محزناً أن تكون أعمى، قال لي ابن ايدوفيخيس، عندما يكون لك أصدقاء يروون لك الأشياء وهذا صحيح؛ وأنا لم أكن أعمى، لكنني كنت بحاجة إلى من يشرح لي سرّ هاتين المرأتين اللتين بكتا طويلاً، لما ابتعدت عن بابنا، للأبد، عربة جمعية الإحسان.

## 5

كنت أقضي أياماً وأياماً حدّ صديقي، ألعب دور الأستاذ، وهو يغدو كل مرّة أكثر رضى عن شروحي فقد باتت أدق، غير أني كنت مع ذلك حزيناً،

ولئن استطاعت عيناي الرؤية والنظر، والتمييز بين الألوان، والأشكال القريبة والبعيدة، ما كنت قادراً على شرح، وفهم الظلّ الذي يحيط بي، الظل الشبيه بظلّي وبظلّ تلك الخادمة السوداء التي أتت بها والدتاي ذات يوم. كانت استحالة النفوذ بالنظر إلى السرّ الذي يحيط بي تهدّم الفرح الذي يعطينيه دوري لأني كنت أدرك أني على مثل عمى صديقي. وبحت له بذلك ذات عصر.

المعلّم والتلميذ، كلانا كان أعمى. كنت أفهم أن التشبيهات التي أصنعها من أجله: الغيوم كجيوش، الأشجار، كرجال رفعوا أذرعتهم، لم تكن تعني شيئاً. والتشبيه ليس شرحاً عندما تكون حدود التشبيه أيضاً مجهولة. أنا، كانوا يشرحون لي سرّ والدتي بتشبيه وضعي بوضع لا أدري أي قدّيس روماني؛ وأنا كنت أشرح لصديقي الأشياء التي تحيط بنا بأن أقابلها بأشياء أخرى. وما كان يفيده أن يعرف أن البقر تمشي كما نمشي نحن على أربع؟ وخف حماسي فيما استمر الطفل المسكين بإلقاء الأسئلة عليّ لدى كل خطوة.

كان، وهو يدور بحبتين بيضاوين تحت جفنيه السمينين، يرجوني قائلاً:

ـ اشرح لي كيف هي الغيوم في هذه اللحظة. هل هي مثل البيوت التي تعيش فيها النجوم أو مثل البقرات التي أعطت حليباً هذا الصباح؟

قلقي كان قلقي، والغيوم كانت غيوماً لا تشبه البيوت ولا البقر. غيوم! غيوم فحسب!

حتى إذا استجبت لالحاحه أعطيته الأشكال التي قطعناها معاً في الأيام السعيدة، فكان المسكين الصغير الذي لم يلحظ ضيقي يمرّ ثم يمرّ برأس إصبعه على تلك الانحناءات التي تحوي نتفاً من واقع لا جدوى منه.

ـ دعني أتخيل مدينة... لابدّ وأنها جميلة!... ويحسّ النجوم وهو يتكلم عن البيوت.

وفكرت، أن مدينة من نجوم لن تكون جميلة فحسب، إنها تكون رائعة.

وهكذا أخذت أكبر في جوّ العمى المخدوع ذاك... حتى إذا كنا في بيت الأعمى الصغير، نظر إلينا معاً إيدوفيخيس وقال ضاحكاً:

ـ هو ذا دون اينيورانتين ودون اينيورانتون[53].

كان ايدوفيخيس بذقنه التي تنضح تبغاً ولم يلمسها مقصّ أبداً، ويديه المتسختين دائماً من الأرض، وثيابه المرقعة على الكوعين والقفا والركبتين، إنساناً حيّاً، واقعيّاً، فيما تبدو والدتاي أشكالاً قطعت من حلم. من قطعهما؟ من قطعهما، على كل هذا الشبه، ووضعهما بين يدي كي أحزر، أنا الأعمى المسكين، من منهما أمّي، من منهما أختي؟

كان زوّار بيت البستاني ينبضون أيضاً بالحياة؛ أجير مزرعة وجنته مشجوجة من الأذن حتى الشفة، يتمخّط بأصابعه. حطّاب تنقصه عين يبصق أكثر مما يتكلّم. والمرأة التي تحمل وجبات الطعام، السيدة نيفيس، دائماً ممشطة الشعر وجدّ نظيفة ترسم الصليب كلما تلفّظ الأجير أو الحطاب بشتيمة.

وعلى عكس ذلك، كان يبدو ألا شيء يوجد في بيتي، لا الأشياء ولا نحن. امرأتان نموذجيتان لهما أيدي رئيستي دير تلبسان أنسجة ناعمة، شعرهما دائماً مرتب، تمشيان دون ضجة حدّي، تبكيان صامتتين، دائماً خائفتين، ناعستين، تتكلمان بصوت خفيض حتى لتحسب ألا صوت يندّ حين تحرّكان فمهما. هكذا استعيدهما في ذاكرتي، تجلسان دائماً إلى طاولة بين الصور وقوارير العطر الفارغة. كان يحدث أن أتخيل أني أعيش منفصلاً عنهما بزجاج يمنعني من سماع ضجة صوتيهما أو خطاهما. وماذا أقول عن الفرق في الجو! في بيت البستاني كانت تتناوب روائح الفواكه تبعاً للفصول؛ ففي أيام يهيمن البرتقال الحلو، والأناناس، والجوّافة الحامضة، والخضر الناضجة المترعة عصيراً؛ وفي أيام أخرى كان يفوح بيت ايدوفيخيس برائحة اللحم المشويّ؛ وفي بعض الأصائل كانت تعطّره رائحة بخار ماء المكواة على الغسيل الذي يعطيه الكيّ

---

(53) جاهل.

بياضاً صلباً؛ حتى إذا رشّوا في بعض صباحات الشتاء غرفتي في البيت الصغير ساد جوّ عفونة خانق، عطر منجة، رائحة أقفاص عصافير، وفخاخ فئران، ومجثم[54] ببغاء. أما في بيتي، فعلى العكس، دائماً رائحة مكان مغلق، وشمعة تنطفئ. في بيت البستاني زهور وفراشات. في بيتي، دائماً نصف ظلمة، غسق من الصباح إلى المساء، كل شيء في نظام، في مكانه، وأشياء قديمة تحركها من أحد إلى أحد إلى تلك التي كنت أظنّها أختي فيما تعد تلك التي كنت أظنّها أمي بعض صحاف الفضة التي لم نرهنها أو لم يحملها آخر الزوّار معهم.

كان المعلم والتلميذ، دون ايجنورانتين ودون ايجنورانتون لا ينفصلان أبداً. يأتي إلى بيتي أو أذهب إلى بيته. كان المسكين الصغيرَ، يحبّ الصمت وهدوء ذاك النفق ذي المخرج الوحيد، الذي قضيت فيه طفولتي. عندما كانت تقبّل شفتاي وجنتيه، كان يصيح فرحاً. وهو كان يقبلني أيضاً. وفيما كانت قبلتي احتكاكاً خفيفاً، كانت قبلته تغدو ضغطاً من فمه قاسياً وحاراً على وجنتي. وكان هذا أيضاً يحزنني. أنا، علمتني والدتاي أن أقبل في وقار لا يفهم، بلطف، دون ضمّ، وقد علّموا الأعمى الصغير أن يقبّل في هياج وأن يضم بقوة، بقوة عظيمة.

## 6

انفتح الباب وانسربت أختلس الخطا. فقد تواعدنا على اللقاء، الأعمى الصغير وأنا، في البستان كي نذهب إلى المستنقع.

كانت مغامرة: أن أخرج من البيت، ليلاً، وأصل حتى الماء الخؤون. لم يتبعني أحد. خشيت أن تسمعني إحدى والدتيّ وأنا أخرج. كانتا تنامان دون أن تعرفا أنهما تنامان؛ في سريرين متشابهين. إحداهما كانت أمي، الأكثر

(54) قضيب تجثم عليه الطير.

شحوباً، التي كانت لها ابتسامة مطرّزة على الشفتين. غير أنها كانت تنسى، عندما تنام، مأساتها وتبتسم. التي كنت أظنها أختي، وهي خالتي، في الحقيقة، كانت على هيئة خطيبة شاخت، دون أن يكون لها أبداً خطيب، أو أم أهملوها وطفلاً، لم يكن ابنها. خرجت بالجورب، وحذائي بيدي، كي لا أحدث أية ضجّة؛ وتجاوزت سالماً ظلال الأشجار الضاربة إلى الزرقة، الأوكاليبتوس، والسرو، والجكرندة، والتنوّب. كان ضيق الوحدة يخنقني، وغبار الصمت الذي ينزل من النجوم ورائحة الصنوبر الراتنجي الجافة القابضة، وعطر الياسمين، ورائحة أشجار التين الحلوة، مأوى الذباب الأخضر والنمل الذي يكافحه ايدوفيخيس بنيرانه، وقد غدت في تلك الساعة جمراً، كانت كلها تشيع في ضيقي ضياء رماد ودخاناً قطنياً.

كان يخيّل لي أني أمشي في نومي، دون أن أكون خرجت من البيت، في حلم ملموس. أن تتقدّم بجفنيك. هكذا كنت أفعل، في البستان، وأنا أتجه إلى بيت الأعمى الصغير، ـ هل كنت أحلم يقظان ـ قدمان عجيبتان تغزان في عبير أشجار الورد التي بلا حراك، تخدشني أشواكها، إذا لم أحتط بإبعادها، عبير فاقع البياض الذي يلصقه القمر على تماثيل الآلهة العارية؛ ولهذا كانت، تظهر أضخم، في الليل.

تقدّمت سريعاً من بيت ايديفيخيس. كان الأعمى الصغير ينتظرني هادئاً، وقد اعتمد جذع عريشة معذّب، وارتدى قميصاً أبيض طويلاً.

وتبادلنا قبلاً رطبة كقبل النجوم، دون أن نغامر بالكلام، فقد هيمن علينا الخوف من أن نفرغ بالكلام ـ من الممكن أن نرجع عن فكرتنا، عن كلامنا، لا عن رغبتنا في الذهاب إلى المستنقع كي نتصادق مع الماء.

سألني: «هل القمر طالع؟» فيما كنت أمسك بيده، وفمه المتجلّد على أذني.

كان من بخار، منيراً، في قميصه الأبيض، لا وزن له، لا يزن أكثر منّي، على قشرة الأرض النائمة.

كرّر عصبياً: «هل القمر طالع؟».

ـ ألا تحسّ به؟

ـ بلى، بلى، أحسّ به كأنه يملأ أذني قطناً. بابا يقول إن القمر أعمى؛ يصنع كثيراً من النور لكنه لا يرى شيئاً.

كان قميصه يزحف فيكنس الأوراق الميتة ويدع في أثرنا صوتاً راجفاً.

ـ الأشجار أيضاً عمياء. لها أوراق كثيرة لكنها لا ترى شيئاً. والنجوم، تلك الدواليب ذات الرؤوس التي قطعتها معك، قل لي، هل ترى النجوم أم لا؟

ـ نحن الذين ننظر إليها، نخالها ترانا.

ـ إنك على خطأ تماماً. لا يمكن لأحد أن يكون أكثر عمًى منها؛ بالولادة. ولولا ذلك لكانت سعيدة، ولما صارت دليل أقدارنا المحتوم.

هتف: «إنك تعرف أشياء كثيرة!».

ـ نعم، منذ صرنا صديقين، يحدّثني أبي عن كل شيء، حتى لأسكت، كما يقول، عندما تثرثر معي.

بت لا أحسّ بالإطمئنان إلى دوري دليلاً ومعلّماً. كان صديقي على حسّ أعمق بالأشياء، وليس الأشياء بذاتها، وإنما في تساميها الذي لا يلمس.

أشجار لوز، وعباد شمس تدور وحدها أو ترافق القمر في عريه المتوحّد، وجداجد تنام في أوقات متقطّعة، وديان لامعة، شعاعها ضارب للخضرة... وعدوت فتوقف صديقي، يبحث عني بيديه كسبّاح بلا ماء، لا يجرؤ على التقدّم. راجعت خطاي، وحكيت له أنه توجد أنواع من الذباب اللامع الذي يطير. حملت له بعضاً منها. وأخذت أصابعه الصغيرة كي يلمسها في باطن كفي. حرير ديدان. ضحيت بها وحككت عينيه، جفنيه الميتين، بذاك الضياء الخفيف. مازلت أراه حدّي بثوبه الأبيض الطويل، وعيناه تتوقدان في قناع وجهه الصغير العظمي، كأنّه، منوّم، نظر بأشعة الديدان تلك.

قلت: «إني خائف، قليلاً عليه وقليلاً عليّ، خائف من أن تأكلني الماء... الماء تأكل الأولاد... أليس هذا صحيحا؟».

- الأولاد القذرين فقط... وابتسمت ابتسامة مسكينة لأني أنا أيضاً كنت خائفاً.

تضرع قائلاً: «فلنجلس».

ووافقت فجلسنا على جذع مقلوب مازال أخضر؛ كنا نسمعه يعيش في داخله، ويحمل خصلة من فسائل، بين النباتات المتسلّقة والعفن. كان المستنقع وراءنا. كان يجتذبنا. كنت أحسّ قوته المغناطيسيّة. كان يدعونا بصفير... سيس.... سيس... اختلاج ريح حيّ على الماء... سيسّ... سيسّ...

سألني قلقاً: «فيم تفكر؟».

- بالماء....

- يا للتطابق، أنا أيضاً كنت أفكر به.

وتقوقع علي، إذ جمع ذراعيه وفخذيه، ككائن بلا دفاع، ورأسه الصغير على صدري، وإشعاع الدودات اللامعات التي فركت بها جفنيه تصنع له دوائر من حجارة كريمة.

وأحسست أنه يودّ أن يكلمني، لكنه لم يزد على أن رسم حركة، نوعاً من البحث عن ملامحه، عن فمه، عن صوته الذي لا يتوصل إلى إيجاده.

وأخيراً حزم أمره:

- لا أدري إن كان يجب علي أن أروي لك ما سمعت قوله منذ أيام. كانت والدتاك تثرثران مع أبي. حتى أهلنا ينسون أحياناً أننا نستطيع السمع، يتبادر لهم أننا أشياء. لقد عشت، إذا صدقناهما، في بيت كبير، في بيت جدّ كبير، يحيط بك خدم بجدائل، غير بعيد عن البحيرة، بين الصيّادين، وكنت تلعب لعبة القرصان في رواق صغير. في ذلك البيت، ليكن الله معنا! الذي

كانت تقام فيه عبادة اللص الشرير، وقد كان أصحابه، الذين يلبسون دائماً السواد مثلك، يختفون جميعاً كانوا يرحلون فلا يرجعون أبداً، والوحيد الذي عاد، كانت ثيابه صلبة مصفرة، وقد رمى نفسه في البحيرة فابتلعته.

وتوقف فترة من الزمن ثم أتمّ:

ـ كيف تستطيع أن تخاف من مستنقع أنت الذي أبحرت طويلاً بحثاً عن مركب استطعت فقط أن تراه يمر قريباً. هو أحد تلك المراكب الأشباح التي تسافر ضالة في البحر يديرها أولئك السادة العجيبون، الذين يلبسون الأسود دائماً، يختارون للرحيل، وقد امتطوا خيلاً سوداً، أسْوَدَ الليالي، فلا يعودون أبداً إلى البيت الكبير الذي كنت تفلت منه، أنت أيضاً، كيَ تلجأ إلى الرواق الصغير أو تذهب كي تسكن نفسك إلى صمت الصيادين البحيريين.

ـ أحد أولئك الرجال اللابسين السواد، وهو الذي له حاجبان كثيفان، ووجهه إذا حلقه، يبدو أرضاً محروثة، أغرى أجمل الأختين اللتين تبدوان تقريباً توأمين. لوّث شرفها واختفى. وفرت الاثنتان خشية جدّك؛ وحين عادتا إلى البيت العائلي، كنت أنت ولدت. لكنّ أيّاً منهما لم تعترف للأب من هي الأم. ابن أمين فضحتا!

ـ بمعنى أنهما... بمعنى أني... هذا كل ما استطعت أن أتوصل للفظه، وقد هزتني نوبة ضحك مجنون.

واستمر الأعمى الصغير يتكلم. جفناه كانا يتحرّكان على حبتي عينيه الجافتين اللتين كانتا تبحثان عني.

ـ بمعنى أنهما... بمعنى أني...

كنت أضحك، أضحك، أضحك. أن أختفي، أن أفرّ، أنا أيضاً، على طريق ضحك. وشعرت بنهاية هوّة عميقة، بحر دموع، بستان شوك. أحسست أن قلبي يضطهد ذاك الرأس الصغير المحب الذي يتكئ على صدري، أن شيئاً آخر سوف يحدث، أن ظلاً سوف يمدّ عليّ حداده الذي لا يزول.

وهتف: «ما أطول الليل!...».

قبلت وجنتيه ووافقت. ما أطول الليل!

ـ أهنالك غيوم؟

ـ نعم، هنالك غيوم... غيوم واطئة، سوداء، حبلى.

لما سمع قولي هذا شدّ بنفسه علي وتشبث بذراعي كما لو أن يداً لا ترى أرادت أن تنتزعه مني.

ـ ما يحدث لي، إني خائف... كان يفلت الكلمات بين أسنانه فتتصادم في رجفة تكاد لا ترى، أنا خائف من أن أذهب بعيداً عنك، بعيداً عن أبي، عن بيتي؛ أحسّ أحياناً كأن أحداً يختطفني، كأنهم يضربونني.

وأخفت الغيوم السوداء القمر، فأظلم البستان. واستمريت أردد لنفسي، بمعنى أنهما... بمعنى أني... لكن من دون أية رغبة في الضحك الآن.

ـ المقبرة، كيف تكون؟ كيف يكون الأموات؟ كيف يمكن أن يدفنوك ويدعوك وحيداً...؟ كان يكدّس الأسئلة.

ـ المقبرة، هي مكان جدّ فرح. كنت أهزأ منه، فقد انقطعت فجأة عن حبه، وكان بوسعي أن أدفعه إلى قعر المستنقع فيبتلعه لو أننا اقتربنا منه؛ نعم كنت أدفعه... قلت له ساخراً منه: «المقبرة مكان مسلّ إلى أقصى حدّ، فيه جبال روسية، ومدرسة فروسية، وسكان هم الموتى، الذين يجتمعون في الليالي المعتمرة. لابدّ أنهم يغنون في هذه اللحظة، يغنون ويرقصون، في قمصان بيض طويلة، مثلك. لكن هذا في الليالي المقمرة فحسب، أما في النهار فلا شيء منه أبداً لأن الشمس تمحو الموتى، وكذلك أمر الليالي المظلمة لأن من يتركون قبورهم فيها يصبحون أشباحاً، ولا يعودون إليها، مثل السادة الذين يلبسون السواد ورحلوا على خيل سود من البيت الكبير وهم الآن يبحرون بعيداً عن اليم، في مركب ميت، من دون أنوار...

ـ وكيف يجري الدفن؟

ـ يجري كما حين ألعب بتغطيتك بالقش. لكن هنا بالتراب وللأبد.

أصغى إليّ واتنهد.

ـ قال لي أبي إن المقبرة هي نوع من مدينة حزينة. يبدو أن الشيوخ يرونها هكذا. أنت تقول، على عكسه، إنها فرحة، وأفضل أن أصدق هذا، أليس كذلك؟ قالت والدتاك منذ أيام أن كل شيء ينتهي ويبدأ في المقبرة، وأن الأهل يتركون هناك، أبناءهم وحيدين والأبناء آباءهم. لا أريد أن يدعوني وحيداً. سوف ترافقني. لا أريد، لا أريد أن ينتهي كل شيء من دون أن أكون استطعت رؤية أي شيء، دون أن يزول قبل العدم، هذا العدم الأسود الذي أعيش فيه.

كان القمر يترنح بين الغيوم، مسامياً[55]، شاحباً كحجر خفّان في سماء من زيت، والنجوم الممحية أحرف ذهب غير مقروءة من كتاب ألحان صلوات قديم؛ وصوت الرمل، ساعة معطلة، وهو يجفف الرطوبة في دروب الأشجار التي تسكنها طيور ليلية، وبومات تتبختر كجميلات الليل، غير أن كل هذا لم يكن هاماً عندنا فما كانت لنا آذان إلا لصوت الماء في الأقنية وفي المستنقع... سيسّ... سيسّ... سيسّولا ...

وألح علي مرتاباً: «ماذا قلت؟».

أجبت: «لم أقل شيئاً...»،وأنا مشغول بأن تغلغل فيَّ رائحة النباتات، من الفم، والأنف؛ غير أني تكلمت. بمعنى أنهما... ـ لكن بصوت خفيض حتى لكدت لا أسمع نفسي أنا؛ صحيح ما يقولون من أن العميان لهم سمع مسلولين. بمعنى أنهما... بمعنى أني!...

ـ سألتك من أجل أن أقول شيئاً. الصمت، هو الموت. صمت الأحياء لأن ما بقي يستمر بالحديث معنا. لماذا تسكت؟ هل كدّرك ما رويت لك؟ عفواً! كنت من قبل تحكي لي حكايات، والآن لا تقول لي شيئاً. بين الظلمات الأبدية والصمت، ماذا ينقص كي يدفنوني...

---

(55) كثيرالمسام.

صحت به: «اخرس! اخرس، توقف عن الكلام عن الموت!».

وقفز ضفدع على قدمي. تمنيت لو ألتقطه، وأضعه في يديه وأن أقول له إنه ببغاء. كرهته، أردت أن أنتقم. صوت الأقنية؛ شالات الظلّ، الشبيهة بشالي والدتيّ.

اقترحت عليه بصوت خائف، مضطرب، يرجوه العفو: «لنذهب إلى المستنقع».

ـ في ليلة أخرى؛ ليس اليوم. لنرجع...

ـ لماذا ما دمنا خرجنا كي نذهب إلى المستنقع؟ أريد أن أحاول الذهاب، أريد أن أعرف كيف حال الماء.

ونهض عن الجذع الذي بقينا جالسين عليه واتجه صوب المستنقع دون مساعدتي، في خطو صغير، كالماء في أقنية السقاية، يقود نفسه بالسمع على اختلاج الريح الذي لا يدرك على صفحة الماء... سيّس... سيسّ... أي طائر هذا الذي يغرّد؟ أية زهرة، أية زهرة جوّافة ثمينة استيقظت؟ أية نجمة انطفأت للأبد؟ أخذتها السماء وابتلعتها.

تبعته وأوقفته قبل المستنقع، بالأحري كي أوقف نفسي أنا. لو قمنا بخطوة أكثر إلى أمام، لأخذته من ذراعه وما توقفت قبل أن أرميه في الماء... بمعنى أنهما... بمعنى أني...

أشجار سوداء جميعاً، دون تقاطيع، ظلال قطيفة في الظلّ، ريح تضاعف عدد الأغصان.

أن أغرقه!

إذا رميته الليلة في الماء، لن يعرف أحد أني أنا.

أن أغرقه مع سرّي...

لكنه ليس وحده الذي يعرف، كان يعرف أيضاً، أيدوفيخيس الذي روت له والدتاي، اللسانان من خرق أنهما... أني... ولو أني يهمني، والحق، قليلاً أن

يعرف أيدوفيخيس. فهو يرمي ذاك من ذاكرته. الشيوخ يرمون كل شيء، يتعرّون بالقدر الذي يقتربون فيه من الموت. الذي لم أكن أستطيع قبوله، هو أن يطلع على الأمر الأعمى الصغير. كانت تغيظني فكرة أنّه وسرّي سوف يكبران معي.

هذا الجسد الصغير الذي أسلم نفسه، واثقاً، بين ذراعي، كان تحت سلطتي، وكان يخيفني عنف ترددي: أن أستمر إلى المستنقع أو أعود إلى البيت.

لمح قائلاً: «هل أنت خائف؟».

ـ نعم أنا خائف! فلنرجع إلى البيت.

أوقفته (بمعنى أنهما... بمعنى أني...) كان أفضل أن أحمله حتى بيته، وأن أرميه على سريره كي يغرق في النوم؛ ولقد داهمني الرعب حين ميزت أن مرّت في عقلي فكرة نزع قميصه عنه ورميه في المستنقع كي يعتقد الناس أنه غرق وهو يريد أن يسبح.

ـ قلت له ونحن ندخل البيت: «والآن على رأس القدمين». يا للمسكين الصغير، كان يمشي جيداً، في غاية الاستقامة، على رؤوس أصابعه حتى ليظنّ أنه مشى دائماً بهذه الطريقة كي لا يحدث ضجة، ولا ينتبه إليه أحد وهو يصغي إلى ما لا يعنيه. (بمعنى أنهما... بمعنى أني...).

لم أقل له وداعاً. رواق صغير. بيت كبير. سادة يلبسون سواداً لم أعرفهم وتنتظر عودتهم كل ليلة، وشمعدانات أشعلت، وموائد أعدّت وسُرُر رتّبت. والخدم ذوو الجدائل، كجدائل ثوم أسود. وصيادو البحيرة، تندّ عنهم رائحة ماء حلوة، وحدقات عيون من كريستال ثابت. الرواق. لماذا لم يختطفني الغجر؟ مع أني كنت على الطريق، وقد أعطيت يدي إلى غجرية. وأنقذني الرجال ذوو الشعور المجدولة. واستطعت أخيراً أنا أيضاً أن أفرّ في مركب الخوري الذي عيّنه الأسقف كي يدير خورينة تركناها، ذات ليلة، إلى شاطئ لا يصله النظر ولا

البحر. كنا نبحث، كنا نلاحق سفينة قرصان ضائعة في عرض البحر، من دون نوتية، فقد ماتوا جميعاً ضحية صاعقة سامّة، ولو أنهم ظهروا أحياء، لأنهم تحجروا في مراكز عملهم أو قيادتهم أو على جسور النزهة. وأبي كان معهم. كنت أسأل والدتيّ منذ أن تستيقظا... وكانتا تبكيان بدموع كبيرة مثل حجارة الطريق، الذي ابتعدت عليه، وإلى الأبد، عربة مؤسسة الإحسان التي لا تُعين العائلات التي لديها أطفال غير شرعيين.

ضربات عنيفة على الباب. طلعت الشمس. جاء ايدوفيخيس ينبئنا أن الأعمى الصغير غرق في المستنقع. قفزت من سريري. طلبت والدتاي مبذليهما. أخذت أعدو إلى المستنقع وأنا أرتدي ثيابي، دون أن أعقد شريط حذائي، وأنا أزرّر بيد قميصي وأمسك بالأخرى بنطالي الذي كان يسقط.

كان البستانيون مجتمعين. وهو يطفو، كنائم، في قميصه الأبيض الطويل. أحد البساتنة كان يخلع ثيابه كي يأتي به.

لم أر أكثر من ذلك. جرّوني. أخذتني من يدي إحدى والدتي، تلك التي أقول عنها أمي، ورجعنا سريعاً إلى البيت تتبعنا تلك التي كنت أظنّها أختي.

دفعتا الباب. كانتا تبكيان. كنت أبحث عن دمعة في عيني الجافتين. كانتا تبكيان بصمت، كما في الحن. ومن رؤوس أهدابهما تسقط قطرات كبيرة من نوطات مدوّرة، وقصيرة وذوات أسنان. كانوا يبكون بصراخ عظيم في بيت ايدوفيخيس...

لم يبد لي موت الأعمى الصغير واقعياً، كان كأنه لعب طفل، شيء لم يحدث حقيقة، بالحلم فحسب. منعت عن الخروج، حتى إلى الباب، لكنني كنت أعرف كيف أفرّ ليلاً.

من كان يتبعني؟ من كان يتاديني؟

نجوم تبدو كأنها تخرج من الأرض، لوثها الغبار، قطط جفونها من ظل، أشجار تحركها الريح...

كنت أكرهه. كنت أكرهه. كنت أحسّ أني أمسك بيده وأني ذاهب كي أرميه في المستنقع؛ والتقطت قبضة من غصينات مشتعلة من إحدى النيران التي أوقدها أيدوفيخيس ورميتها في الماء المعتم...

لا شيء... لا أحد... انطفأت.

بمعنى أنهما... بمعنى أني...

سيسّ... سيسّ... سيسّ... الريح على الماء.

بمعنى أن والدتي... الرواق الصغير...الخدم ذوي الجدائل... اللص الشرير... السيرك... آناتاباريني... العبد بيسبيس... الخوري...عربة مؤسسة الإحسان... كل هذا، كان حلماً.

دخان الجمر المنطفئ كان يطفو على الماء مثل قميصه الطويل...

صلّبت على وجهي... باسم الآب! كدت أقول، وانتبهت: .... باسم أحلامي!...

سيسّ... سيسّ... الريح على الماء... الريح على الماء...

ولد ميغيل انجيل استورياس في غواتيمالا عام 1899 ، أي بعد عام من وصول الدكتاتور استرادا كابريرا إلى السلطة . كانت طفولته مفعمة بذكريات الرحيل والاضطهاد والدم . شارك منذ شبابه في النضالات الطلابية وأبدى اهتماماً عميقاً بثقافة الهنود ، سكان البلاد الأصليين . عمل في السلك الدبلوماسي ثم أقام في الأرجنتين ، بلد زوجته ، لاجئاً سياسياً .

وفي بداية الثلاثينات أقام في باريس حيث كتب ( اساطير غواتيمالا ) التي قدم لها الشاعر الفرنسي بوَل فاليري . وعندما عاد إلى غواتيمالا عام 1933 كان يحمل معه مخطوطة روايته ( سيدي الرئيس ) التي لم تر النور إلا سنة 1952 بسبب الأوضاع السياسية في بلاده . وقد سجن استورياس في الارجنتين بسبب هذا الكتاب الذي يتعرض فيه لدكتاتور طاغية كان قد مر على موته حينئذ أكثر من نصف قرن .

وفي الفترة ما بين 1949 ، و1960 كتب ثلاثيته الكبرى : العاصفة ، البابا الأخضر وعيون المقبورين .

عام 1966 تبدلت الاحوال في بلاده وجاءت حكومة ديمقراطية عينته سفيرا لها في باريس . وفي السنة نفسها حاز جائزة لينين للسلام . وفي العالم التالي 1967 حصل على جائزة نوبل للآداب .